بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

"السيرة الذاتية في الأردن: الذات، والإطار الاجتماعي: ٢٠٠٠م – ٢٠٠٥م."

"Autobiography in Jordan: Self and Social Framework: 2000 – 2005 A.D."

إعداد: فايز صلاح قاسم عثامنة
(بكالوريوس لغة عربية–جامعة اليرموك–١٩٩٢م)

إشراف: الأستاذ الدكتور زياد صالح الزعبي

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/أدب ونقد من جامعة اليرموك– إربد/ الأردن
٢٠٠٦/١٢/٢٨م.

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

"السيرة الذاتية في الأردن: الذات، والإطار الاجتماعي ٢٠٠٠م – ٢٠٠٥م"

"Autobiography in Jordan: Self and Social Framework 2000 – 2005 A.D."

إعداد: فايز صلاح قاسم عثامنة
٢٠٠٤١٠١٠٢٠

أعضاء لجنة المناقشة:

١- الأستاذ الدكتور زياد الزعبي/ أستاذ النقد الأدبي..............................مشرفاً ورئيساً
٢- الأستاذ الدكتور نبيل حـــداد/ أستاذ الأدب الحديث.............................عضواً
٣- الدكتور ابراهيم الكوفحـــي/ أستاذ مشارك أدب حديث...........................عضواً
٤- الدكتـــور حـــامـــد كســـاب/ أستاذ مساعد أدب حديث............................عضواً

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/ أدب ونقد من جامعة اليرموك- إربد/ الأردن

٢٠٠٦/١٢/٢٨م.

الإهداء

إلى روح والدي الطاهرة... رحمه الله

وإلى الأم الحنون الصابرة...

وإلى زوجتي وأبنائي أحبائي ورفاق دربي...

وإلى أخوتي وأخواتي وأصدقائي وزملائي...

إليهم جميعا أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع.

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله تعالى على رعايته وعونه لي على إتمام هذه الدراسة، ثم أتقدم بوافر الشكر وعظيم الامتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور زياد الزعبي، الذي لم يبخل علي يوماً بعلمه ووقته وجهده، ولولا إرشاداته ما قدر لهذه الرسالة أن تخرج بما خرجت عليه، فجزاه الله عني وعن العلم خير الجزاء.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ الدكتور نبيل حداد والدكتور حامد كساب والدكتور ابراهيم الكوفحي، الذين شرفوني بقبول مناقشة هذه الرسالة وإبداء ملاحظاتهم السديدة.

والشكر لكل من ساهم في إعداد هذه الدراسة وساعد في إخراجها على هذا الشكل.

الفهــرس

الموضــوع رقم الصفحة

الملخَــص

"السيرة الذاتية في الأردن: الذات، والإطار الاجتماعي ٢٠٠٠ - ٢٠٠٥م."

"Autobiography in Jordan: Self and Social Framework 2000 – 2005 A.D."

إعداد:

فايز صلاح قاسم عثامنة

إشراف:

الأستاذ الدكتور زياد صالح الزعبي

يقف هذا البحث على خمس من السير الذاتية التي ظهرت في الأردن بين عامي ٢٠٠٠م ــ ٢٠٠٥م. كتبها سياسيون ومثقفون وكتاب وهي سير تسترجع صورة الذات في الإطار الاجتماعي الذي عاشت فيه بأبعادها كافة، كما تجلت فيها صورة الإطار الاجتماعي بكل عناصره.

وقد ركزت السيَر الذاتية في مجملها على ثلاثة من المرتكزات السردية الزمنية الحاسمة في كتابة السيرة الذاتية: مرحلة ما قبل الطفولة، وهي نقل الأخبار عن طريق الراوي والتمهيد للمرحلة التالية، مرحلة استرجاع الطفولة؛ التي تقوم على (تعرية الذات)، وتسليط الضوء على حياة المبدع، لأهميتها من الناحية الفكرية والنفسية التي تتشكل آنذاك، ومن ثم مرحلة الشباب؛ والانطلاقة نحو الآفاق سواء كان ذلك صعودا أو هبوطا، أحيانا، وقد تمثل هذا الجانب من الدراسة في تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، والمرحلة الأخرى، المتقدمة في السن (الخلاص)؛ والتي تتبلور فيها الأحداث

والوقائع والأحوال وترتسم الصور بشكلها النهائي في سرد استذكاري لأصداء الماضي، إذ يتم تشكيل الخطاب السير ذاتي والذي يسمى بالزمن الحاضر، ويتكون محتوى الخطاب من مجموعة من العناصر الداخلية ضمن بناء فني وأسلوب أدبي، يتمثل في دفع الضيم وقهر الصعاب وتذليلها وإظهار الدور البطولي لإزاحة هذه المعيقات عن صاحبها وعن المجتمع الذي ينتمي إليه.

وباحتفاء أصحاب السيَر لما تقدم، نجد أنهم حققوا بها ثلاثة من المرتكزات الأدبية الهامة في النقد الأدبي: وهي إنشائية الخطاب السيَري (الرسالة)؛ ومنشئ الرسالة الذي عمل على تكييف الخطاب ضمن وقائع حقيقية (المرسل)؛ ذات الكاتب وعلاقته بالآخر (المرسل إليه)، وإن فقدان أحد هذه العناصر يضعف البناء الفني للسيرة الذاتية، ويفقدها أهميتها.

المقـــدمـــة

تهدف هذه الدراسة إلى قراءة تفصيلية للسير الذاتية التي صدرت في الأردن خلال المدة الواقعة بين عامي ٢٠٠٠م ــ ٢٠٠٥م، مركزة على جانبين: الذات الكاتبة، والإطار الاجتماعي، محاولة أن تتقصى عناصر هذين الجانبين من خلال رؤية نقدية تستند إلى الدراسات المتعلقة بالسيرة الذاتية.

لقد شهد مطلع الألفية الجديدة صدور عدد من "السير الذاتية" في الأردن، مثلت جوانب مختلفة، كالجانب الاجتماعي والثقافي والسياسي، وهي سير تسترجع صورة الذات في الإطار الاجتماعي الذي عاشت فيه.

ومن الواضح أن السير المعنية بالدراسة قد وقفت على ثلاثة من المرتكزات السردية الزمنية الحاسمة في كتابة السيرة الذاتية وهي: مرحلة ما قبل الطفولة، بنقل الأخبار عن طريق الراوي والتمهيد للمرحلة التالية، مرحلة استرجاع الطفولة؛ التي تقوم على (تعرية الذات)، وتسليط الضوء على حياة المبدع، لأهميتها من الناحية الفكرية والنفسية التي تتشكل آنذاك، ومن ثم مرحلة الشباب؛ والانطلاقة نحو الآفاق سواء كان ذلك صعودا أو هبوطا، أحيانا، وقد تمثل هذا الجانب من الدراسة في تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، والمرحلة الأخرى، المتقدمة في السن (الخلاص)؛ والتي تتبلور فيها الأحداث والوقائع والأحوال وترتسم الصور بشكلها النهائي في سرد استذكاري لأصداء الماضي، إذ يتم تشكيل الخطاب السيَر ذاتي والذي يسمى بالزمن الحاضر،

ويتكون محتوى الخطاب من مجموعة من العناصر الداخلية ضمن بناء فني وأسلوب أدبي.

لذلك عمد أصحاب السير على استعادة ذلك الماضي ــ الطفولة ــ في استجلاء صورة الذات وتمجيدها والوقوف على الواقع الحياتي المعيش في تلك الفترة الماضية بتجلد وصبر.

وقد تناولت في دراستي سيرة كل من: سليمان موسى ثمانون: رحلة الأيام والأعوام؛ فالح الطويل مدارات الذاكرة وفي الطريق إلى عمان: أوراق سفير؛ عبد السلام المجالي رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدة الحكم؛ وهدان عويس العودة إلى الهدأة؛ رجا سمرين أوراق الشتات: سيرة ذاتية ومذكرات.

واتخذت في هذه الدراسة منهجا يقوم على استقصاء النصوص لكتّاب السير الذاتية والتركيز على العوامل السيكولوجية والاجتماعية للعلاقة التي تربط الذات بكتابة السيرة وسبر أعماق النفس الإنسانية من خلال النصوص المعنية بالدراسة، مع الأخذ بعين الاعتبار باقي المناهج الأخرى ذات العلاقة بهذه الدراسة.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة فصول: الفصل الأول تحدثت فيه عن استرجاع الذات في السيرة الذاتية، وفي الفصل الثاني عن الواقع الحياتي في الأردن المتمثل في الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وفي الفصل الثالث عن البناء الفني للسيرة الذاتية. وخاتمة؛ أتبعها بالمصادر والمراجع.

تحدثت في التمهيد عن ماهية السيرة الذاتية، وتقديم وجهات نظر لمختلف مفاهيم السيرة الذاتية الحديثة؛ ومن ثم قمت بعرض تاريخي موجز لمسيرة السيرة الذاتية في الأردن، منذ بداية ظهور سيرة الملك عبدالله الأول "**من أنا**" حتى الانتهاء من كتابة هذه الدراسة.

وفي الفصل الأول، تحدثت عن استرجاع الذات في السيرة الذاتية؛ والتركيز على عامل مهم وهو الطفولة، التي غابت عن الكتابات السابقة للسيرة الذاتية في الأردن، إذ تمثل هذه المرحلة نقطة وعي الطفل بالمحيط بأبعاده المادية والاجتماعية.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن الواقع المعيش في الأردن من خلال النصوص المعنية، ممثلا في الجوانب الاجتماعية والثقافية والسياسية.

وفي الفصل الثالث أبانت الدراسة عن أنواع السير الذاتية، منها: السيرة التاريخية التسجيلية؛ تمثل هذا النوع في سيرة رجا سمرين، والنوع الآخر: السيرة الذاتية الأدبية؛ إذ يعد الشكل الروائي في كتابة السيرة الذاتية من أرقى الفنون التي تستعين به السيرة الذاتية لكتابتها، وذلك بفضل تواجد عنصر الإبداع والخيال الفني، والمتتبع لأبرز السير الذاتية وأميزها يجد الكثير بها من الأسلوب الروائي، وقد تمثل هذا الجانب في أغلب السير الذاتية موضوع البحث.

وتحدثت كذلك عن الأبعاد الفنية للسيرة الذاتية، حيث نجد أنها تتفاوت في عملية الكتابة من عنصر إلى آخر، وأن لكل عنصر مهمة ووظيفة تؤدى على حده في السيرة الذاتية، وكلما اشتملت السيرة الذاتية على تكامل العناصر الفنية في عملية الكتابة، كان ذلك

أجدى في تقديم الصورة الحقيقية لفن السيرة الذاتية من خلال تلك الأبعاد التي يقدمها صاحب السيرة الذاتية، لهذا يصعب جدا على كاتب السيرة الذاتية أن يتخلى عن تجربته الحياتية الخاصة، حيث المكان الذي عاش فيه منذ الصغر حتى المراهقة، والزمن الذي يتألف من لحظات خاصة ومراحل معينة. ومن العناصر الفنية والخصائص المميزة لطبيعة السيرة الذاتية، التي تجلت فيها الأبعاد الفنية لتلك النصوص المعنية، والتي تم التطرق إليها: العنوان واللغة والزمان والمكان والسرد.

وكل أملي أن يحظى جهدي الذي بذلته في هذه الدراسة بالتوفيق والتقدير، وأن يوفقني الله لما فيه خير.

"وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير إنه سميع مجيب".

التمـــهيد

ماهيـــة السيرة الذاتيـــة

مفهـــوم السيرة الذاتيـــة

السيرة الذاتية في الأردن

ماهيـــة السيرة الذاتيـــة

السيرة الذاتية جنس أدبي، أثار ــ وما زال يثير ــ جدلاً مستمراً حول طبيعتــه بوصفه جنسا أدبيا منفصلا أو متداخلا مع أجناس أدبية أخرى؛ لهذا تعددت الآراء في وضع حد جامع مانع لهذا المصطلح، الذي لم يستقر به الأمر حتى كتابة هذه الدراسة، إذ إن فيليب لوجون قد وضع تعريفا لهذا المصطلح، قائلا: إنها "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته"(١).

ثمة تطابق مع هذا التعريف في أغلب ما كُتِب مـــن سير ذاتية، لكن إلى أي مدى تكون الدقة في التطابق ما بين المفهوم وكتابة النص؟ إن هذا مرهون باستقرار هذا الفن بشكل عام وهذا ما لم يحصل، مما جعل لوجون يتراجع عن التعريف السابق ويقدم تعريفا جديدا لذات المصطلح، قائلاً: "وبعد تعديل طفيف، سيصبح حد السيرة الذاتية كالآتي، الحد: حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"(٢).

وفي إعادة صياغة هذا التعريف، يكون "لوجون" قد وضع حداً شمولياً وميثاقاً معيارياً لمصطلح السيرة الذاتية في إعادة بناء الحياة ضمن وقائع صادقة. وفيما يخص درجة الصدق في السيرة الذاتية، وهل من الممكن للصدق التام أن يتحقق فيها؟ يقول إحسان عباس:"الصدق

1) فيليب لوجون، السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ، ترجمة عمر حلي. ١٩٩٤، ص٨ــ٩.

2) نفسه، ص٢٢.

الخالص أمر يلحق بالمستحيل، والحقيقة الذاتية صدق نسبي، مهما يخلص صاحبها في نقلها على حالها؛ ولذلك كان الصدق في السيرة الذاتية "محاولة" لا أمرا متحققا"(١).

وفي تعريف آخر لمصطلح السيرة الذاتية نجد أنها صورة حقيقية للشخص لأي لحظة هامة في الحياة، وهناك اختلاف في أسلوب الكتابة وطبيعة المادة، أثناء مرحلة الطفولة والكتابة في سنوات متأخرة، إذ تشبه السيرة الذاتية المادة البلاستيكية في حال صياغتها وتشكيلها، لحظة كتابتها في سنوات متأخرة.(٢)

مفهوم السيرة الذاتية

"السيرة في اللغة، على اعتبار أنها فن أدبي في المحل الأول، جوهره التواصل اللغوي: هي الطَّريقة، أو السُّنَّة، وسار الوالي في الرعية، "سيرة" حسنة، وأحسن "السَّيْر" وهذا في "سِيَر" "الأوَلين"(٣).

وفي تقصينا لمفهوم السيرة في التراث العربي، نجدها تعني: "السيرة: الهَيْئَةُ "سنعيدها سيرتها الأولى" وسَيَّرَ سيرة: حَدَّثَ أحاديث الأوائل"(٤).

والسيرة الذاتية غير السيرة الغيرية، وقد فرّق بينهما مجموعة من الدارسين لهذا الفن، بالقول: السيرة الذاتية، هي: "تعبير عن أهم مظاهر الحياة الشخصية لكاتبها، وهي حياة لا ينفصل فيها "الداخل" عن "الخارج"، وذلك أنها في صميمها، تركز وإشعاع، انفصال واتصال، انطواء على الذات وافتراق عن الذات"(٥)

---

1) إحسان عباس، فن السيرة، ١٩٥٦، ص ١١٣.

2) The New Encyclopedia Britannica,1990, P.p198- 199

3) عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية.١٩٩٢، ص٣.

4) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق، أمين عبد الوهاب. ١٩٩٩، ص٤٥٤.

5) عبد العزيز شرف، ص٤.

أما السيرة الغيرية، فهي: "بحث عن الحقيقة في حياة إنسان فذ، وكشف عن مواهبه وأسرار عبقريته من ظروف حياته التي عاشها، والأحداث التي واجهها في محيطه والأثر الذي خلفه في جيله"(١).

أما الدراسات الحديثة التي تناولت موضوع السيرة الذاتية في الأدب العربي، فإنها تفرد مجموعة كبيرة من مصطلحات السيرة الذاتية لدراسات سابقة في العرض والتحليل، نستخلص منها ما يلي: بداية استعادة ذلك الماضي بأسلوب فني، يتوافق مع طبيعة الشخص بسرد منطقي حقيقي، يصل بصاحب السيرة إلى واقع حياتي كان يعيشه الفرد نفسه، إذ يتآلف ظاهر المرء مع باطنه بتناغم رائع متكامل مشكلا السيرة الذاتية. ونظرا لجمال هذا الفن، والدقة المتناهية في وصف الواقع الإنساني، ووصف ما يحيط به وما يمور في صدره من مشاعر، ونظرا لجمالية هذا الفن ودقته فقد عبر عنه (ليتون ستراشي)، بالقول: "إنه أدق وأرقى فنون الكتابة طراً"(٢).

وهناك تعريف آخر للمصطلح، تجد مقدمه مغاليا في وصفه، بالقول: "السيرة الذاتية نوع من الأدب الحميم، الذي هو أشدّ التصاقاً بالإنسـان من أية تجربة أخرى يعانيها"(٣).

والسيرة الذاتية تختلف عن المذكرات واليوميات على الرغم من قرب بعضها من بعض: "السيرة الذاتية كتاب يروي حياة المؤلف بقلمه وهو يختلف مادة ومنهجا عن المذكرات واليوميات"(٤). وهذا لا يمنع من وجود تداخل من نوع ما، بين السيرة الذاتية وتلك

---

1) المرجع السابق، ص١٨.

2) ليون ادل، فن السيرة الأدبية. ترجمة صدقي حطاب. ١٩٧٣، ص٩،

3) علي شلق، النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث. ١٩٧٤، ص٣٢٤.

4) تهاني شاكر، السيرة الذاتية في الوطن العربي. ٢٠٠٢، ص١٤.

الفنون الأدبية[١] إذ إن هذه الأشكال التي تتداخل مع السيرة الذاتية "بدأت في الظهور منذ القرن الخامس عشر وأخذت أشكال أخرى تتوالى، مثل: الرسائل، واليوميات، والمذكرات، والذكريات"[٢].

السيرة الذاتية في الأردن، عرض تاريخي موجز

تعود بدايات ظهور كتابة السيرة الذاتية في الأردن إلى مرحلة التأسيس الأولى للدولة الأردنية منذ عام ١٩٢١م. فقد صدرت أولّ سيرة ذاتية في الأردن جمادى الثانية سنة ١٣٥٩هـ. وهي سيرة المؤسس الملك "عبدالله بن الحسين" (من أنا)[٣]. وقد تناولها بالدراسة كل من:

- أمين أبو الشعر، مذكرات الملك عبدالله[٤]، ١٩٧٠.
- تيسير ظبيان، الملك عبدالله كما عرفته[٥]، ١٩٩٤.
- تركي المغيض، السمات الأسلوبية في مذكرات الملك عبدالله بن الحسين[٦]، ١٩٩٩.

وفي تتبعنا لواقع الأدب والنقد الحديث بشكل عام فقد تناوله كثير من الباحثين بالدرس والتمحيص في الوطن العربي، إلا أن الأدب في الأردن ــ وموضوع السيرة الذاتية خاصة ــ لم ينل حظه الكافي من هذه الدراسات. وكانت الدراسات العربية وما تزال خجولة فيما يخص موضوع السيرة الذاتية. ويعود الفضل في لفت الأنظار إلى الأدب الأردني في تلك الفترة إلى الملك عبدالله الأول ابن الحسين، عن طريق عقده للمجالس الأدبية والمطارحات

---

1) للمزيد عن تلك الأجناس القريبة من السيرة الذاتية، أنظر المرجع السابق، ص١٦ــ ٢٢.

2) Britannica Concise Encyclopedia, 2003, P133

3) للمزيد أنظر المذكرات، ص٣٧، ومن أنا، ص٣٩٦، حقبة من تاريخ الأردن، الآثار الكاملة للملك عبدالله ابن الحسين.

4) أمين أبو الشعر، مذكرات الملك عبدالله. ١٩٧٠.

5) تيسير ظبيان، **الملك عبدالله كما عرفته**. ١٩٩٤، ص٧٧، ٢٠٤ــ ٢٠٥.

6) تركي المغيض، **مجلة المنارة**. جامعة آل البيت. ١٩٩٩، ص٤٢٩.

النقدية التي كان يعقدها جلالته في قصره، فقد " كان الأمير عبدالله مدار الحركة الأدبية والشعرية في الأردن، وكان بعض النتاج الأدبي يجد طريقه من خلال الصحف والمجلات التي وجدت آنذاك، وبعضه الآخر كان يظل ضمن الدائرة الخاصة، محفوظاً في الذاكرة"[١].

وقد ظهرت فيما بعد مجموعة من السير الذاتية في الأردن، كتبها أدباء مثل عيسى الناعوري الذي أصدر سيرته الذاتية بعنوان "الشريط الأسود"[٢] عام ١٩٧٣. وسياسيون مثل هزاع المجالي "مذكراتي"[٣]، وشكري شعشاعة "ذكرياتي"[٤]، و "يوميات صالح المصطفى التل"[٥] والتي لم يكتب لها النشر و"يعقوب العودات"[٦] الذي يعتبر كتابه "إلى ولدي" جزءا من السيرة الذاتية، وهي سير تختلط بالمذكرات واليوميات والذكريات.

وهناك سير ذاتية لشخصيات سياسية أشهرها، السيرة الذاتية لجلالة الملك الحسين، "مهنتي كملك"[٧] و "ليس سهلا أن تكون ملكا"[٨]. وبعد ذلك ظهرت مجموعة من السير الذاتية واليوميات، تغطي الفترة التالية، وهي:

سيرة سياسية ليعقوب زيادين "البدايات"[٩]، وأخرى لعبد الرحمن شقير "من قاسيون إلى ربة

---

1) سمير قطامي، الحركة الأدبية في شرق الأردن منذ قيام الإمارة حتى سنة ١٩٤٨م. ١٩٨١، ص٢٤.

2) أنظر قطامي، الحركة الأدبية في الأردن ١٩٤٨ـ ١٩٦٧م. ١٩٨٩، ص ١١٢ والشريط الأسود، مختارات من أدب عيسى الناعوري. ص ٥٢٣

3) هزاع المجالي، مذكراتي. [د. ن] / [د. ت].

4) منشورات جامعة آل البيت ، ذكريات شكري شعشاعة. ، تحرير، عبد القادر أبو شريفة وآخرون. ١٩٩٩م. ص ١٩٩.

5) نفسه، ص٩١.

6) نفسه، ص٣٢٣.

7) د.م الحسين ملك المملكة الأردنية الهاشمية،مهنتي كملك: أحاديث ملكية. ١٩٨٧.

8) هشام عبدالله، الحسين بن طلال ليس سهلا أن تكون ملكا. ١٩٩٩.

9) يعقوب زيادين، البدايات، سيرة ذاتية أربعون سنة من الحركة الوطنية الأردنية. ١٩٨١.

عمون: رحلة العمر"[١]، وثالثة لخالد الكركي "سنوات الصبر والرضا"[٢] والطريقة التي يعتدها خالد الكركي في سرده للسيرة الذاتية "يماثل السرد القصصي الروائي إذ يبدأ سيرته بالاستفهام ويحدد كتابة السيرة الذاتية منذ البداية"[٣].

هذه النماذج المذكورة للسيرة الذاتية، كان معظمها ينظر في الهم الإنساني، ضمن واقع اجتماعي حافل بالأحداث لتلك الفترة التاريخية، وينظر في أبعاد الذات والتعمق فيها لإيجاد منفذ لتلك الحقبة.

أما ما يخص موضوع الدراسة، فقد شهد مطلع الألفية الجديدة صدور عدد من "السير الذاتية" في الأردن، كتبها سياسيون، ومثقفون، وكتاب، وهي سير تسترجع صورة الذات في الإطار الاجتماعي الذي عاشت فيه، وقد تجلت فيها صورة الذات بأبعادها كافة، وصورة الإطار الاجتماعي بكل عناصره، وهي بهذا تشكل موضوعاً مهماً للبحث، وكل ما يمكن للباحث أن يجده حول هذا الموضوع لا يزيد على تناول جزئي لبعض كتب السيرة الذاتية الأردنية، مثل دراسة "السيرة الذاتية في بلاد الشام في الأدب العربي الحديث"[٤]. التي وقف فيها الباحث على سيرة الناعوري "الشريط الأسود"، الصادرة عام ١٩٧٣.

أما فيما يتعلق بالسير الذاتية موضوع الدراسة هنا، فكل ما كتب عنها مقالات نقدية ظهرت في الصحافة، منها مقالتان لخليل الشيخ عن: "مدارات الذاكرة"، فالح الطويل و"العودة إلى الهدأة"[٥] لوهدان عويس؛ ومقالة لزياد الزعبي عن: "ثمانون رحلة الأيام

1) عبد الرحمن شقير، من قلسون إلى ربة عمون؛ رحلة العمر. ١٩٩١.

2) خالد الكركي، سنوات الصبر والرضا. ١٩٩٩.

3) نفسه، ص٩ـ ١٠.

4) ناجي أبو شريحة، السيرة الذاتية في بلاد الشام في الأدب العربي الحديث. ١٩٩٧.

5) خليل الشيخ، السيرة والمتخيل. ص٢٥٩، ٢٧٣.

والأعوام"[1] لسليمان موسى، ولذا فإن هذه الدراسة ستنصرف إلى قراءة تفصيلية للسير الذاتية مركزة على جانبين: الذات الكاتبة؛ والإطار الاجتماعي، محاولة أن تتقصى عناصر هذين الجانبين من خلال رؤية نقدية مستندة إلى الدراسات المتعلقة بالسيرة الذاتية. والسير موضوع الدراسة هي:

ـ ثمانون: رحلة الأيام والأعوام، سليمان موسى. ٢٠٠٢م. مؤرخ وكاتب.

ـ مدارات الذاكرة، فالح الطويل.ج١، ٢٠٠٢م. سياسي وكاتب.

ـ رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدة الحكم، عبد السلام المجالي. ٢٠٠٣م. سياسي.

ـ العودة إلى الهدأة، وهدان عويس. ٢٠٠٣م. سياسي وكاتب.

ـ في الطريق إلى عمان، أوراق سفير، فالح الطويل. ج٢. ٢٠٠٤م. سياسي وكاتب.

ـ أوراق الشتات: سيرة ذاتية ومذكرات، رجا سمرين. ٢٠٠٤م. أديب وكاتب.

---

1) زياد الزعبي، ثمانون: كثير من الرضا.. كثير من المرارة. الرأي ٢٠٠٤.

الفصــــل الـــأول

استرجاع الذات في السيرة الذاتية

الطفولة، الأسرة، القبيلة، الأماكن.

استرجاع الذات

استرجاع الذات في السيرة الذاتية، مرهون بالعودة إلى الماضي والسجل الشخصي للفرد منذ الإرهاصات الأولى، إذ إن مجرد التفكير في الكتابة الذاتية يحيل إلى العودة للبدايات الأولى للشخص نفسه، والذي يعين على هذا الذاكرة وهي عرضة لآفة النسيان ولذلك نجد أنه من الضروري الاستعانة في استخدام الأسلوب الروائي في كتابة السيرة الذاتية، وذلك من أجل العون والمساعدة في توظيف عناصر الرواية في استخدام أسلوب التخيل؛ وإضفاء طابع "الصدق الرمزي". وعلى الرغم من هذا التداخل ما بين السيرة الذاتية والرواية، فإنه توجد فوارق بينهما في أمور عدة، وسوف نبين هذا في الفصل الثالث من الدراسة.

إن كتّاب السيرة الذاتية العرب أو أغلبهم يعود بالخيال لاستعادة "قارة الطفولة الغريبة على حد تعبير كوهن"[١] لذا نجد التركيز واضحا لدى الكتاب على الأماكن في بنية النص المتخيل، "وطن المرء امتداد لذاته، إذا وصفته فإنما أنت تصف المرء نفسه"[٢].

من هنا فإن معظم السير المتحدث عنها قد عمل أصحابها على استعادة ذلك الماضي ــ الطفولة ــ في استجلاء صورة الذات وتمجيدها[٣] والوقوف على الواقع الحياتي المعيش في تلك الفترة الماضية بتجلد وصبر. وعلى سبيل المثال لا الحصر، استرجع فالح الطويل في سيرته الذاتية هذا الماضي، وكان مسهبا في الحديث عن بداياته الأولى في كفاحه وعصاميته من أجل الخروج من معاناته ومن المحن التي واجهته آنذاك، بدليل قوله: "صرت

---

1) تيتز رووكي، في طفولتي، ترجمة، طلعت الشايب. ٢٠٠٢، ص٢٥٥.

2) نفسه، ص٢٥٥.

3) للمزيد أنظر محمد لطفي اليوسفي، فتنة المتخيل. ٢٠٠٢، مج٣، ص١٨٠ــ ١٨٤.

رمزا للشؤم. كل الأطفال الذين ولدوا تلك السنة كانوا رمزا للشؤم. المشكلة أن أحدا من الذين أعرفهم من أقراني لم يولد تلك السنة. فقد كان قدرا علي أن أحمل الرمز وحيدا"[١].

هذا ما سيوقفنا من أجل التحليل والكشف عن تلك المعاناة التي واجهت أصحاب تلك السير في سردهم الذاتي لتلك النصوص، وفي تصويرهم حال الخلاص من الويل والمحن التي لاحقتهم في زمن الطفولة، لهذا جاء تعبيرهم عن ذلك الزمن ممزوجا بالمرارة والقهر من قسوة الأيام في واقع مؤلم كانوا يعيشونه، إذ استطاعوا الخروج منه فيما بعد والتغلب على الصعاب والعقبات في النفاذ إلى عالم أرحب وأوسع من ذي قبل.

أ- الطفولــــة

يشكل الاهتمام بمرحلة الطفولة عنصرا محوريا في السيرة الذاتية، وقد تجلى الاهتمام بهذه المرحلة لدى معظم كتاب السيرة الذاتية وذلك من خلال الصور المستحضرة والكشف عن تلك المرحلة ومكنونها وتبيان واقع الحال سواء أكان فقرا أم حالا معيشا أو سلوكا عاما أو خاصا، ينعكس كل ذلك على الذات الفردية والجماعية معا داخل منظومة المجتمع، بدليل أن مفهوم الذات في الدراسات السابقة، يعد: "بمثابــة تقييم الشخص لنفسه ككل، من حيث مظهره وخلفيته وأصوله وكذلك قدراته ووسائله واتجاهاته وشعوره، حتى يبلغ كل ذلك ذروته حيث تصبح قوة موجهة لسلوكه"[٢] والتركيز على مرحلة مهمة وملازمة للطفولة ــ المراهقة ــ إذ "تعتبر من أهم مراحل النمو لدى الإنسان وفيها تتشكل البذور الأولى لرؤيته المستقبلية للعالم والوجود"[٣].

1) فالح الطويل، مدارات الذاكرة. ٢٠٠٢، ص٩.

2) صلاح الدين العمرية، مفهوم الذات. ٢٠٠٥، ص١٢.

3) عطاف عويس، النمو النفسي للطفل. ٢٠٠٣، ص٢٥٦.

من هنا، فقد جاءت السيرة الذاتية العربية والحديثة منها على وجه الخصوص، مقرونة بهذا الجانب الهام ، برصد مرحلة الطفولة.

وفي هذا يقدم لنا رمضان بسطاويسي في مقدمة الترجمة العربية[1]. لكتاب "في طفولتي" لروكي، قائلاً: "فالطفولة (الماضي) وطن قد هاجرنا منه إلى عوالم جديدة ولا يمكن استعادته، ومحاولة الكتابة عنه هي تعبير عن حالة من حالات الفقد، والكتابة عن الطفولة من منظور مرحلة سنية متقدمة هي محاولة لاستعادة ما ضاع ولا يمكن ــ من خلال الكتابة ــ استعادة الطفولة؛ لأن كل ما يستطيع الكاتب أن يفعله هو أن يقدم صورة خيالية عن الطفولة التي عاشها، وتكون هذه الصورة بمثابة بديل يقدم عوالم ليست حقيقية، وليست مرئية؛ فهي أوطان متخيلة.... " [2].

من خلال ما تقدم، نجد أن السير الذاتية تقدم صورا تفصيلية للذات في مرحلة الطفولة، من خلال عملية استعادة تخيلية تعنى بالكشف عما تراه سمات مميزة لها، مستخدمة البنية السردية المألوفة في الرواية. وهذا ما ذهب إليه تيتز روكي، بالقول: "سيرة الطفولة تستخدم الكثير من القواعد الأدبية الروائية، بينما لا نجد تلك الدرجة من الاندماج بين السيرة الذاتية المعيارية والرواية... سيرة الطفولة تمثل بعدا بديلا لا يمكن نقله عن طريق المنطق النفعي للشخص الناضج المسؤول، ليست "الدقة" إذن، بل "الصدق" ــ الصدق الرمزي الداخلي ــ هو الذي يصبح المعيار الوحيد المقبول"[3].

1) تيتز رووكي، ص٣٩.

2) نفسه، ص١٢.

3) نفسه، ص٢٣١.

إذن استرجاع الذات، يحيل للبدايات[1] والأيام الأولى للشخصية الفردية، لمعرفة الانطباعات العامة والخاصة والميول والاتجاهات النفسية التي اكتسبها الفرد. لذلك تعتبر الذات مليئة بالأسرار ونجد في قراءتها ومعاينتها صعوبة بالغة.

وقد عبر لوجون عن هذا بقوله: "وإنه لمن المستحيل أن نقول الحقيقة حول الذات، أو أن نتكون باعتبارنا ذواتاً كاملة. ومن ثم فالسيرة الذاتية ذلك العمل المستحيل، غير أن ذلك لا يمنع وجودها بتاتا"[2].

إذن يقوم الجزء الخاص بالطفولة على تعرية الذات، وتسليط الضوء عليها وكشف كامل لتلك المرحلة الزمنية، من شخوص وواقع اجتماعي وسياسي وثقافي وبيئي: حياة الآخر والمحيط الاجتماعي، وتعد الكتابة هي العين الراصدة للماضي، تتجاوز الأنا الخاصة للكاتب صاحب السيرة لتتخطاه إلى الآخر، سواء كان هذا الآخر ذاتا بشرية أو مجتمعا أو سلطة أو منهجا فكريا، بمعنى آخر: تسليط الضوء على حياة الكاتب في مرحلة الطفولة، كونها أهم مراحل تكون الإنسان فكريا ونفسيا، تشكل البذور الأولى لرؤيته المستقبلية للعالم والوجود، مشكلة النواة الأولى لقلم المبدع. وحسب ما ورد في السير الذاتية في بثهم للصور الشخصية والفردية والجماعية ومدى العلاقة التي تقوم بين هذه المرتكزات، التي توحي إلى الأنا والآخر، فإن الذاتي قد يكون تسليط الضوء على هوية الفرد؛ والجماعي: هوية الوطن، الهوية مقابل الآخر، وهل هي مستقلة، (الذاتي) وغناؤها عن الآخر، أم تتحقق وتنبثق في وجودها من خلال الآخر: حيث يستحيل تحقق الذات وإيجاد هوية ما إلا عبر الآخر، تحقيق

---

1) للمزيد عن البدايات الأولى للطفل، أنظر المرجع السابق، ص٢٢٣.

2) لوجون، ص١٧.

كيان مكتمل أو منظومة حياتية ذات جسد وروح[١].

إن الأساليب التي يوظفها كتاب السير لمرحلة الطفولة تتشابه في أغلبها ، وذلك بانتقائهم الأحداث التي يكون لها دور أساسي في تكوين شخصية صاحبها، ومن ثم يقوم صاحب السيرة بتغييب العديد من الأحداث التي يظن صاحبها بأنها ليست على أهمية في الإخبار عن شخصيته، وكذلك الوقائع التي يجد حرجا في ذكرها أو تعرضه للسخط، من هنا يأتي دور كاتب السيرة في تحريك الأحداث والوقائع، بقهره للصعاب وتذليلها، وإظهار الدور البطولي لإزاحة الضيم والقهر الذي لحق به وبالمجتمع الذي ينتمي إليه. نكشف عن هذا في دراسة متأنية للسير موضوع البحث:

ثمانون: رحلة الأيام والأعوام، سليمان موسى [٢].

تكشف مرحلة الطفولة التي عاشها عن ذات ترغب في التغيير بنظرة ثاقبة!! إلى المستقبل، فهو يبدو متفائلا أحيانا ومتشائما أحيانا أخرى في بلوغ الهدف وقد جاء حديث الطفولة لديه ممزوجا مما كان يسمعه ويتردد من الآخر في أغلب الأحيان؛ وأحيانا أخرى وهي الأغلب، اعتمادا على مجريات الأحـــداث التي عصفت به منذ بداية وعيه بالمكان الذي ولد وعاش فيه، قرية "الرفيد" "ومعظم البدايات تنطلق من تحديد لحظة "الميلاد" للكاتب أو لحظة توهج الذاكرة الأولى" وسيرة سليمان موسى تبدأ بذلك، قائلا: "كان مولدي يوم ١١حزيران١٩١٩، في قرية الرفيد إلى الشمال من مدينة إربد، كان ذلك في آخر موسم الحصاد"[٣]. تلك البدايات تشكل أوطانا متخيلـــة، مشاهـــد وصورا متخيلـــة شديدة الالتصاق

---

1) أنظر رووكي، ص١٦ وما بعدها.

2) الموسى، ثمانون: رحلة الأيام والأعوام. ٢٠٠٢.

3) نفسه. ص٧.

بالمكان الذي نشأ فيه الطفل، يتم رصده من قبل الطفل نفسه، ويتم الخلط بين الواقع والخيال ورصد حالات الفقر بارتباطها بتلك الطفولة، وربطها بظروف قاسية عاشها هؤلاء الكتاب[1]. إذ يصور الوضع الذي كان سائدا آنذاك من خلال سرده للواقع الحياتي الاجتماعي القاسي، مستحضرا صورة والده ومعاناته في حياته بإضفاء طابـــع الصدق والبساطة، متحدثا عن الذكريات الغابرة المتمثلة في الصور الواقعية للآخر (الجمعي) في جلب الماء وجني المحصول وصعوبة الأمور المعيشية كافة، ومن ثم وفاة والده وهو في سن السابعة، والتي شكلت ضربة قاسية له، وتصوير معاناته في أثناء دراسته لتأمين موارد للعائلة، كان يعمل عملا شاقا في أثناء الإجازة المدرسية، قائلا: "وقد عملت في أثناء الإجازة السنوية الثلاث أو الأربع، الأخيرة من دراستي الابتدائية في الرجاد ودراسة البيادر" [2].

يقدم الموسى الصور السابقة للبدء بالسرد سير ذاتي الطبيعي وذلك بالإفصاح عن تلك الظروف التي أوجدت له حالة من القلق وعدم الاستقرار، قائلا: "أمضيتُ في قرية الحصن سنوات عادية، لا أستطيع أن أقول أنها كانت سنوات سعيدة" [3].

ومن الصور التي يستحضرها وتحدث أثرا كبيرا في النفس الإنسانية، تصوير حالة الفقر والبؤس وقسوة العيش، المتمثل في مبيتهم في مكان واحد مع الحيوانات في نفس الغرفة، قائلا: "وهكذا كان البيت يتألف من جزأين: الجزء الأمامي وهو واطئ يبيت فيه الجمل والبغلة، والجزء الداخلي، وهو الأكثر اتساعا، وترتفع أرضيته نحو نصف متر عـــن

1) للمزيد أنظر، رووكي، فصل٧، ٨.

2) الموسى، ثمانون. ص٣٥.

3) نفسه، ص٣٦.

مستوى الجـــزء الأمامي، ويستعمل لإقامة أفراد الأسرة ومبيتهم. وعلى هكذا كنا نعيش والحيوانات تحت سقف واحد" (١).

وفي مكان آخر، يحدثنا عن جانب مهم من مرحلة الطفولة وهي المراهقة، والتي قلما نعثر عليها في باقي السير، مشكلا بذلك عناصر التطور السردي، في السيرة الذاتية: العاطفة تجاه المرأة، كان يجد في ذلك متعة الإحساس والأحلام، قائلا: "يحسن بي أن أعترف هنا أنني طوال حياتي كنت أستمتع بالأحلام والأمنيات. وبعبارة أخرى كنت أكتفي بالسعادة المستمدة من الحديث والنظر والتخيل. من هو ذلك الشاعر الذي عبر عن شعور مماثل عندما قال: "... وعندكم شهوات السمع والبصر" ؟ لطالما التقيت بفتيات وسيدات فسعدت بالحديث معهن والتملي من محاسنهن. من هنا تحتل أحلام اليقظة مكانا كبيرا في حياتي العاطفية. ولا أجد أن ذلك مما يُستهان به، فالإحساس بالسعادة أمر يختلف من إنسان إلى آخر، تبعا للمزاج والبنية الذهنية والروحية" (٢)؛ لهذا، فإن الأحلام(٣) تأخذ بعدا آخر لديه في تشكيل السرد الذاتي، وهي تعبير عن: "حقائق لا مهرب منها، وعن أحكام فلسفية، وأوهام وتخيلات وحشية وذكريات وخطط وتكهنات واختبارات غير عقلية... وعما سوى ذلك مما لا يعلمه إلا الله"(٤).

وفي الختام، تكتسب سيرته الـــذاتية أهمية بالغة لمرحلة هامة وهي الطفولة، فالحياة التي يرويها والتي عاشها، حياة بسيطة وصادقة في نفس الوقت ــ أحيانا يرويها عن طريق الآخر ــ جديرة بأن تروى، قدم الموسى اعترافاته شاهدا على العصر الذي تمثل أمامه،

---

1) الموسى، ثمانون. ص٢٤.

2) نفسه، ص٤٥-٤٦.

3) أنظر اليوسفي، لفتة المتخيل. يتحدث عن الحلم والرؤيا والانخطاف. مج٣. ص٤٨- ٥٤.

4) كارل غوستاف، علم النفس التحليلي، ترجمة: نهاد مرتاطة، ١٩٩٧، ص٤٥.

بنظرة متعمقة في تغطية تلك الأحوال التي عاشها في بداية الرحلة من فقر وشقاء وضيق ذات اليد، مقدما إيحاءاته الدلالية لتلك الأحوال، مصورا إياها بأجمل الصور التي تعبر عن داخل يقبع في داخله: ذات مريرة غير مستقرة على حال، يرغب ويتمنى في الخروج من هذه المحن طالبا الخلاص له وللآخر (الجمعي)، تتوق نفسه إلى الراحة والطمأنينة ولكنه يراها بعيدة الأمد.

مدارات الذاكرة، فالح الطويل[١].

في قراءة السيرة الذاتية لفالح الطويل، نلمح كثيرا من المحطات والمرتكزات الهامة التي تستحق التوقف عندها، وذلك لغناها بموضوعات كثيرة. وتبدأ السيرة الذاتية من لحظة "الميلاد البيولوجي"، متوافقا مع سليمان موسى في ذلك، ومن ثم يتوالى السرد باستذكار وقائع ولادته، مشيرا إلى أن السنة التي ولد فيها، كانت سنة "قحط وشؤم" ولم تبشر بالخير، يمثل لهذه المقدمة والتي يتحدث فيها عن الحال المعيش، بالقول: "صرت رمزا للشؤم. كل الأطفال الذين ولدوا تلك السنة كانوا رمزا للشؤم"[٢].

يستهل حديثه بالشؤم والبؤس، بتمثلهما بكثرة العثرات والمحن التي ستعترضه، ويتنبأ لما سيأتي من الأيام من تحسن الحال وتغيره. وقد عبر اليوسفي عن مثل هذا الحال: "وتتوالى التفاصيل التي ترسم هذه الطفولة باعتبارها البشارة والدليل على أن لهذا الطفل في مستقبل أيامه شأنا عظيما. وهي جميعها تفاصيل تشير إلى أن هذه الطفولة المكافحة،

---

1) فالح الطويل: مدارات الذاكرة. ٢٠٠٢.

2) نفسه، ص٩.

الصابرة على المحن والويلات والفاقة والآلام لن تكون سوى الطريق المؤدية إلى الأمجاد"[١].

كان الطويل يميل إلى التأمل، والنظر إلى المستقبل، والقدرة على توقع الأحداث قبل وقوعها وقراءة أفكار الآخرين بدقة وتفصيل بالرغم مما كان يلم به من محن ومعيقات تقف أمامه، إلا أنه بمثابرته وتجلده وصبره استطاع فيما بعد بلوغ الهدف. وسوف نعرض لهذه الجوانب التي تجدها مبثوثة في أغلب نصوص السيرة بشكل مفصل، فيما يلي من البحث.[٢].

يوحي أن لديه عقلية متفتحة وناضجة، مقدما من خلالها صورة تمجيد الذات، تجدها متفرقة في كثير من مناحي سيرته الذاتية، ونلحظ المشهد الأول ــ في حادثة محمد الرواشدة والخابية[٣]ــ يوم طلب الرواشدة من الطويل شربة ماء وشاءت المصادفة أن يجد الطويل الخابية فارغة من الماء، وحينها رد عليه والدهُ بالقول: "هذا الواد يا أبو خليل (موجها الكلام لمحمد الرواشدة، وعاتبا) يمكن الله ما خلقه ليكون "سقا" الخابية تقول هيك. هذا "معمّ، مخول." سوف آخذه إلى حيفا إن شاء الله، وسوف يحضر لك هدية من هناك بدل الماء"[٤] وسرعان ما ينتشر الخبر بين الجميع بخصوص سفره إلى حيفا، إذ شكل له هذا الخبر هالة بين الناس، أكسبته ثقة كبيرة بنفسه، وجعلته يتميز بين أقرانه في تلك الفترة، قائلا: "لم يكد يمضي النهار حتى كان كل أولاد القرية يعرفون بسفري إلى حيفا. بعضهم جاء يتمسح بي.

1) اليوسفي، فتنة المتخيل، مج٣. ص٥٩.

2) أنظر الطويل، مدارات الذاكرة. ص٩٦ــ ٩٧. تجد بها بعض ميول الطويل إلى ما كان يطمح إليه.

3) نفسه، ص١٣-١٧.

4) نفسه، ص١٦.

آخرون كانوا يسألونني عن حيفا، وكيف هي، كما أن من الضروري أن أعرف كل شيء عنها لمجرد أنني موعود برحلة إليها" (١).

وفي جانب آخر من تميز الذات وحب الظهور، كان الخطيب يوليه عناية فائقة في تعليمه، نظرا للبديهة وسرعة الحفظ لديه، قائلا: "اعتنى بي الشيخ أحمد الزقط ــ لا أعرف لماذا سموه بهذا الاسم ــ اعتناء كبيرا. أمي تعرف السبب... قال لأمي في يوم من الأيام أنني ذكي وأحفظ بسرعة فائقة وأنني حفظت في الشهور الأولى سورة الفاتحة وعدد من سور القرآن، وأنني أختلف عن الأولاد الآخرين.."(٢). كل هذا كون لديه ثقافة واسعة في التحمس للذهاب إلى المدرسة ولم يكن في حكما ما يلبي طموحه ورغبته في التحصيل، إذ إن طفولته الفقيرة التي عاشها والقليلة الموارد قد زادت من معاناته.

وعن نباهته وذكائه تبدو ملامح شخصيته تظهر تدريجيا، يــوم أن قام مفتش المعارف بزيارة إلى المدرسة، وعن طريق المصادفة يتم اللقاء بفالح الطويل، إذ يقول: "كان المفتش والمعلم وآخرون، في غرفة المعلمين، يقفون فوق رأسي، ويتابعون ما أكتب. وعندما انتهيت تبين بأنني لم أنس حرفا واحدا من القصة. أعدت كتابتها كما هي. ضمني المعلم محمد الراشد إليه وقال للمفتش: هذا هو. فلتة من فلتات الطبيعة. أتحدى أي واحد منكم أن يقرأ أية قصيدة أمامه ولا يرددها كما سمعها"(٣).

إن هذا التميز وتحقيق جزء من الطموح لم يمنع الأزمات من ملاحقته، مستحضرا في هذا حادثة مؤلمة ومؤثرة غيرت مجرى حياته فيما بعــد، حدثت دون تخطيط مسبق بمحض

1) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١٨.

2) نفسه، ص٥٥.

3) نفسه، ص٧٣.

مصادفة، وكان القدر قد لعب فيها الدور الأكبر، سبب هذا له أزمة عنيفة عصفت به وهو في مقتبل العمر بالإضافة إلى الأزمات النفسية الأخرى، مثل: حالة أصبعه الذي لازمته طويلا؛ وكرهه لرجال الدرك وسوء معاملتهم للناس آنذاك؛ والتعليم عند دور الكتاب الذي لم يكن مطلوبا منهم فيه أن يفهموا!!؟ وقد برر أن عدم توافر الخبرة اللازمة وقلة الإمكانات الطبية آنذاك قد حالت دون أن تبقى يد حسين على ما يرام، وتحمل هو وزر ما حدث جميعا، ولازمته الحسرة والألم على هذه الفعلة التي وصفها "بالشنيعة"[١].

ومن خلال ما تقدم، نلحظ في طفولته علامات تدل على وضوح الرؤية لديه في الإفصاح عن ذات طامحة، فهو ذكي ثاقب النظر حاد البصر فطن لا يأبه لأي شيء، اكتسب صفات وراثية من والده وعادات وقيما ذلك المحيط الذي عاش فيه، لم يترك مشهدا عاما أو خاصا إلا وكان له حضور مميز فيه، وخاصة تلك الأحداث الثلاث ــ الحديث الجمعي ــ التي أثرت في نفوس الناس برسم الفرحة على وجوههم، قائلا: "لقد خرجت سحم على بكرة أبيها، ظهر ذلك اليوم، تستطلع ظهور القادم الجديد. كانت طريق إربد تظهر للمستطلعين على بعد عدة كيلو مترات من تلة قريبة من عين التراب. وما إن ظهر الباص حتى انعكس على عيونهم ضوء الشمس الغاربة الواقع على زجاجه، فانطلقت الزغاريد تملأ الفضاء، كما أطلق بعض الرجال النار من بنادقهم"[٢]. بالإضافة إلى شراء الراديو وتشكيل فرقة الكشافة، لتدل على الوضع الاجتماعي البسيط آنذاك؛ وطريقة العيش وظروفه الصعبة.

وبالرغم من تغطيته لمجموعة من الموضوعات ــ كمـــا أسلفنا سابقا ــ إلا أن جانب

1) الطويل، مدارات الذاكرة، ص٧٩.

2) نفسه، ص٨٣.

المراهقة لم يوله العناية الكافية، وإن كنا نلمح بعضا من النتف السردية لهذا الجانب الهام في كتابة السيرة الذاتية الحديثة، ولكن بدأت الأمور لديه في هذا السن تأخذ أبعادا ورؤى مختلفة عما سبق، وبدأت الخيوط الأولى تبلور شخصيته وتتضح نوعا ما بدليل قوله: "أحسست لأول مرة في حياتي بأنني لا ألامس الأرض، بل أطير فوقها قريبا من سطحها على بعد شبر أو شبرين. كان شعورا مذهلا بقوة خارقة كنت واثقا بأنها لو ازدادت قليلا لكان باستطاعتي أن أعبر السماء إلى الله"(١).

في مجمل ما تقدم من ذكر للصعاب والمشقات ومعاناة واجهها الطويل في بداية المشوار، أوجدت منه إنسانا متميزا فذا، قادرا على تحمل الظروف القاسية جدا والتي قلما يتحملها إنسان آخر: "إن الطفل الذي سيكون له شأن عظيم، يحمل بين جنبيه نزوعا إلى التمرد والانشقاق وقهر الصعاب مهما بلغت من القسوة والعتو" (٢).

إذن الطويل لديه رؤية يتنبأ لما سيأتي من وقائع وأحداث، مشبها حاله أحيانا بالأنبياء! وما ذكره لتلك الأحداث والوقائع التي عصفت به ولكنه تخطاها، إلا دلالة على منزع ذاتي في داخل أعماقه النفسية، يولد لديه إحساس في التغيير المطلوب نحو الأفضل، للخروج من الواقع المرير الذي يعيشه. وقد بشر بهذا الواقع منذ البدء، "البؤس والشؤم" ومن ثم لازمته مجموعة من الأزمات عانى منها كثيرا: كسر يد حسين وأصبعه الذي كاد يقضي عليه ومعاناته في الالتحاق بالمدرسة...، هذا على الصعيد الفردي (الأنا)، أما على الصيد الجمعي (الآخر)، فكان يصور معاناة المجتمع وما يحيط به من ويلات، ومحن وقلة في الإمكانات حيث كان هذا ينعكس على شخصه في تأخير الطموح لديه نوعا ما.

1) المصدر السابق، ص١٠٣.

2) اليوسيفي، مج٣، ص٩٠.

من بيت الشعر إلى سدة الحكم:رحلة العمر، عبد السلام المجالي[1].

حديثه عن الطفولة جاء عاما ومختصرا، ولم نلحظ لديه ،حالة خاصة جعلته يعاني كما عانى بعضهم فيما سبق من دراسة السير الذاتية، بدليل قوله في معرض نصوصه السردية: "حياة سهلة بسيطة" ولكنه ينهج نهجا خاصا به في عملية السرد لأحداث الطفولة، مبتدئا بحديثه عن وقائع ولادته وكان ذلك في شباط عام ١٩٢٦م. ومن ثم يقدم مجموعة من التساؤلات حول كيفية معيشة الناس في تلك الأيام؟ بأنها حياة سهلة بسيطة على عكس ما تقدم من ذكر لشظف العيش وقسوة الأيام.

نلحظ في هذه الشخصية، أن الدور الأكبر الفعال في تنميتها في مراحلها الأولى، كان لوالده، وأطلق على والده مصطلحا في غاية الأهمية، شهد الوالد: الغذاء العقلي والروحي السليم المستقى من والده. لقد وصف حياته بأنها بسيطة وهانئة على العكس مما سبق من سير، وذكر أجمل ما فيها ويجعلها كذلك، شهد الوالد، قائلا: "ولعل أعذب ما في سني الطفولة المبكرة هو ذلك الشلال الدافق من شهد الوالد، أعني من محبته لعبد السلام الذي هو أنا"[2]. ومن ثم يعود بذاكرته إلى الطفولة الأولى، قائلا: "فأرى نفسي في غرفة واحدة مع أشقائي، نأكل، ونشرب، وننام كأننا توائم في فراش واحد"[3].

من خلال هذا الاستهلال لسيرته الذاتية، يقدم المجالي اعترافاته، إذ يبدأ حديثه عن الالتحاق بشيخ الكتاب، وأن هذا الوضع لم يكن يعجبه، ملحا على والده بالذهاب إلى المدرسة، ويتم إرساله، وبعد ذلك شاءت الأقدار أن يكمل ويتم رسوبه إلا أنه عاود الكرة

---

1) عبد السلام المجالي، رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدة الحكم: سيرة ذاتية. ٢٠٠٣.

2) نفسه. ص٢٥.

3) نفسه، ص٢٥.

مرة أخرى وأصبح الأول على الصف، قائلا: "في الصف السابع بدا أن آمال والدي قد تكللت بالنجاح، وتحقق له مراده، ففي ذلك العام كان ترتيبي في الصف هو الأول..." (١).

إن الصدق والصراحة من أهم مقومات السيرة الذاتية في نقل الحدث ـــ الصدق الرمزي على الأقل ـــ وإن كان أمرا فيه غرابة لكن طبيعة المرحلة تستوجب الذكر، وما يجعلنا نقر بغرابته: رسوبه في أحد الصفوف ومن ثم ينقل الحدث كما هو دون زيادة أو حذف.

نلحظ طفولة حالمة وطامحة في نفس الوقت، تتنبأ بالمستقبل القريب، إذ إنه كون مع مجموعة من زملائه في تلك الفترة فكرة إنشاء مملكة، قائلا: "ومرة حين كنا في الرابع الابتدائي اجتمعنا لتمثيل إنشاء مملكة، حيث لعب دور الملك أحمد الجبور، وقام بدور قاضي القضاة محمد الشريف، أما قائد الجيش فقد قام بدوره ياسين البيطار، وكان عبد المجيد المجالي مساعدا لقاضي القضاة، وقام شقيقي عبد الوهاب بدور شاويش في الجيش، وكان داوود المجالي شاويشا آخر. وأما أنا فكنت "جندي" برتبة نفر"(٢).

وقد تشكلت لدى عبد السلام المجالي مقومات شخصية ناجحة، تقوده لأن يكون مؤهلا يتحمل الصعاب والعقبات التي تعترضه مستقبلا، مختتما بهذا مرحلة مهمة يوم أن قرر والده إرساله إلـــى مدرسة "السلط" لإكمال دراسته هناك، وفي توديعه لهذه المرحلة، يعلن عن بداية جديدة في التحول إلى اتجاه جديد في مسار حياته، وعن هذه النهاية لمرحلة معينة في مفهوم السيرة الذاتية، تجمع بعض الدراسات على أن النهايات توحي بدلالات معينة ذات شأن في كتابة السيرة الذاتية الحديثة: "نحن نتوقع من النهايات، أكثر من البدايات أن تدلنا

---

1) المجالي، رحلة العمر. ص٣٧.

2) نفسه، ص٣٩.

على موضوع القصة وعلى الأثر المتحقق، كما يعقد "كو" هو الآخر أهمية على النهاية بالنسبة للنوع الأدبي..."[١].

من هنا، فإن الرحيل أو الانتقال أيضا، هو بداية التطور والتقدم والنمو في الكشف والمغامرة والنجاح عن مجتمع آخر بدلا من المجتمع الذي يعيش فيه، بحثا عن ثقافة أخرى، تلبي رغبته في تحقيق ذاته: انتهاء مرحلة الطفولة وبداية مرحلة أخرى مختلفة تماما من الوقائع والأحوال والأهداف.

المجالي يقدم بداية سردية تشكل أنطلاقته نحو الآفاق، برؤى وأفكار واضحة الدلالة في بلوغ الهدف وتحقيق الحلم، قائلا: "كانت الرحلة باتجاه السلط أول دروس حياتي في تعلم التأمل الذي أتاحه لي السير البطيء وقلة الضوضاء، وفرصة الخلو بالنفس، والمدى المترامي من مناظر الطبيعة المتنوعة، وكل ذلك يشكل استعدادا لوضوح الرؤية فيما بعد"[٢].

بهذه الرحلة إلى مدينة السلط، تكون التجربة قد أكسبته ثقة كبيرة في النفس من التطور والنماء – أوجزنا مسبقا لماهية الرحلة في السيرة الذاتية – وبعد حصوله في الامتحان العام على المرتبة الأولى في المملكة، يكون المجالي قد ختم هذه المرحلة الحاسمة، منطلقا نحو الانفتاح على العالم أجمع، والسير قدما لتحقيق الأهداف والاتجاهات الداخلية لديه، قائلا: "لقد أكسبتني المهمات والتجارب خبرة في شتى نواحي الحياة، وقد أردت لخبرتي هـذه أن تكون في خدمة الوطن، ولعل من يقرأ هذه السيرة يعتبر من تجاربي، ولذلك حرصت أن أضعها، في أسلوب بسيط، مقنع بما فيها من حقائق، وما يكتنفه من صدق، وإذا وجده القارئ جميلا قريبا إلى نفسه، فإن الصدق هو الذي أكسبه جمالا الصنعة

---

1) رووكي، ص٢١٤.

2) المجالي، رحلة العمر. ص٤١.

والأسلوب، أريد لهذه السيرة أن تكون رسالة لأجيال وأجيال، من إنسان كان يحس في كل مرحلة أنه جندي يقوم بواجباته نحو أمته بكل أمانة وإخلاص، يعرف النظام والطاعة ويحسن الضبط والربط، ويفخر بما قدم في سبيل الصالح العام"(١).

العودة إلى الهدأة، وهدان عويس (٢).

يتفق عويس مع غيره من أصحاب السير الذاتية السابقة، وذلك بالتطرق إلى الميلاد "البيولوجي"، قائلا: "فقد ذكرت لي أمي رحمها الله أنني ولدت فجر السبت الرابع عشر من شهر تشرين الثاني عام ١٩٣١م، وفي ذلك اليوم بدأت رحلتي نحو المجهول"(٣). ومنذ البدء يعلن عن أنه سوف يلجأ إلى الصدق، قائلا: "الصدق مع الذات فضيلة"(٤).

وذلك بالحديث عن الأيام الماضية، عن المكان وطبيعته الخلابة التي تذكره بأيام الطفولة الأولى، وخصوصا وهو يرعى البقر مع مجموعة من الصبيان في غابة الدلاعي، وأيام قطف العنب عندما كان يركب الحمار ويذهب مبكرا إلى "جرش" من أجل بيعه هناك... قائلا: "كل ما حولي من تضاريس طبيعية ومواقع، تذكرني بأحداث جرت لي في طفولتي وفي صباي. وقد شكلت الملامح الأساسية لشخصيتي وانطبعت في ذاكرتي، وهي تمر أمامي الآن واضحة كشريط سينمائي. أحن إلى تلك الأيام بالرغم من قسوتها وشظف العيش فيها. فقد كانت الحياة بسيطة والأطماع محدودة، وجلّ ما كان يطمح إليه الإنسان هو توفر لقمة العيش ووجود مسكن يأوي إليه"(٥).

---

1) المصدر السابق، ص ١٣.

2) وهدان عويس، العودة الى الهدأة: سيرة ذاتية. ٢٠٠٣.

3) نفسه، ص٢١.

4) نفسه، ص٢٢.

5) نفسه، ص٢٦.

يقدم ميثاق رسالته، التي يود تضمينها في سيرته الذاتية، في البحث عن الاستقرار في توفر لقمة العيش ووجود مسكن بسيط فقط لا غير، على العكس من الواقع الحالي الذي أصبحت متطلبات الحياة فيه كثيرة جدا.

يتحدث عن قرية دبين في الثلاثينيات، حيث كان يوجد فيها عشرة بيوت فقط مبنية من الطين: "وكان البيت في أغلب الأحيان مؤلفا من غرفة واحدة واسعة عالية السقف مقسومة إلى قسمين، قسم سفلي للحيوانات وقسم مرتفع للجلوس والنوم..." [١].

ومن الأحداث الهامة التي واجهته في بداية حياته، تعرضه لمرض الحصبة عندما كان عمره ثلاث سنوات، ثم بناء غرفة جديدة ملحقة ببيتهم وكان ذلك في سن الرابعة، وبعد هاتين الصورتين الضبابيتين ــ كما يصفهما ــ بدأت الأحداث تتوالى لديه بوضوح؛ إذ إنه كان يهاب أخاه الكبير أكثر من والده، بهذه المقدمة، يودع المرحلة الأولى من طفولته، منتقلا إلى الدراسة الابتدائية في جرش برفقة والدته، قائلا: "ذهبت أول مرة إلى جرش برفقة أمي للتسجيل في المدرسة وتخيلت كل شيء أمامي جديدا ومثيرا يبعث في النفس الرهبة والمتعة في آن واحد"[٢].

إن تصويره المشاهد السابقة يمثل الحاجة والعوز في كل شيء: حياة بدائية بسيطة كان يعيشها المجتمع آنذاك، "أما في العام التالي فقد استأجرت منفردا غرفة لدى إحدى العائلات والغرفة كوخ من الطين كان يستعمل لتربية الأرانب أغرتني أجرتها وهي دينار في السنة"[٣]. ونظرا لسوء الأحوال المعيشية فإن أغلب دراسته كانت فـــي الشارع، علـــى

---

1) عويس، سيرته الذاتية ص٣٦.

2) نفسه، ص٤١.

3) نفسه، ص٤٢.

ضوء الفانوس التابع للبلدية. وبسبب شدة المطر في أحد الأيام، لم يستطع الذهاب إلى دبين وكان الطحين قد نفد لديه، قائلا: "وبت تلك الليلة من دون عشاء وفي الصباح وبسبب الجوع طرقت باب الجيران واستدنت منهم ثلاثة أرغفة، وقد سبب لي ذلك كثيرا من الإحراج، وتشكلت لدي عقدة جعلتني أكره الاستدانة من أحد"[١].

إذن يتوافق عويس مع ما أورده الموسى، وأحيانا الطويل حول بدائية الحياة وبؤسها، أما فيما يتعلق بالتعرف إلى بعض عناصر الحياة الحديثة، فيتمثل في معرفتهم بالراديو والباص، قائلا: "شكل دخول الراديو إلى "جرش" حدثا هاما مثيرا للدهشة والانبهار لدى الناس"[٢]. وباستحضاره لهذه الأحداث المؤثرة يودع المرحلة بالانتقال إلى الدراسة الثانوية في "إربد": في هذه المرحلة تأخذ الأمور منحى آخر بالتطور نحو الأفضل، عاقدا مقارنة بين سكنه فـــي "جرش" في أثناء الدراسة "كوخ الأرانب" واستئجاره لغرفة واحدة في إربد تشبه القصر مقارنة بكوخ الأرانب.

أوراق الشتات، رجا سمرين[٣].

تختلف بداية السيرة الذاتية لدى سمرين عن السير السابقة من حيث البدء بالحديث عن "الميلاد البيولوجي"، لهذا جاء حديثه عن مرحلة الطفولة موجزا، نتيجة للهم الأكبر الذي كان يجول في خاطره من أحداث ووقائع هامة في أثناء مكوثه في بلدة "قالونيا"[٤]، قائلا: "لا

1) المصدر السابق، ص٤٣.

2) نفسه، ص٤٦.

3) رجا سمرين، أوراق الشتات: سيرة ذاتية ومذكرات ١٩٢٩ــ ٢٠٠٤.

4) بلدة تقع في قضاء القدس.

أذكر كثيرا من أحداث الطفولة التي تنتهي بسن الرابعة، وكل ما أذكره أننا كنا نعيش في غرفة بالحارة الشرقيـــة تسمى دار سمرين وهي بالقرب من دار صلاح"(١).

وهناك حادثة يتذكرها في أثناء دراسته في الصف الرابع، أثارت غضبه، لقاء نعته بلقب أبو تفاحة من قبل أحد أولاد المدرسة وقد اعترضه في الطريق، لكنه سكت على مضض، قائلا: "اكتفيت ساعتها بشتمه ومضيت في طريقي وفي أعماقي من نيران الغضب المشتعلة ما يكفي لإحراق ذلك الولد وأهل بيته. وكتمت عدوانه هذا في نفسي إلى أن كان ذات يوم.... وأمسكت بذلك الولد وطوقته بذراعي الأيسر وشرعت أضرب رأسه بالحجر.. أدقه به دقا مرات متتالية، وأنا أقول: خذها من يد أبي تفاحة أيها الكلب"(٢).

ومن ثم يستطرد بالحديث عن كيفية التحاقه بالمدرسة، قائلا: "في بداية العام الدراسي من سنة ١٩٣٦م. ألحقتني أمي بمدرسة القرية، وقد أسلمتني إلى الشيخ حسن نسيبه المعلم الوحيد في المدرسة وهي تقول: وديعتك رجا يا سيدنا الشيخ، نريده أن يتعلم على يديك المباركتين"(٣).

يقدم اعترافه بضعفه في مادة الرياضيات، وأنه لم يكن يرغب في دراسة هذه المادة إلا أنه عاود فيما بعد التخلص من كراهيتها وبدأ يفهم قوانينها وطرق الحل السليمة وبدأ ينظم الشعر وهو ابن خمسة عشر عاما، كان يشارك في التمثيل بالمدرسة وكان عضوا في فريق الكورال ويشارك في المسابقات الرياضية. وهو بذكره لهذه الأنشطة في أثناء الدراسة، يضفي على سيرته الذاتية صفات مميزة عن باقي الأشخاص لتلك الفترة، إلا أنه لم يذكر لنا

1) سمرين، أوراق الشتات. ص٧٥.

2) نفسه، ص٨٨.

3) نفسه، ص٩٧.

كما جاء في السير السابقة، عن الحرمان والبؤس والفقر لمرحلة الطفولة، بل ذكر الحالة التي يعيشهـــا في أسرة وفي بيت واحد يربطها الألفة والمحبة في قرية قالونيا.

غلب على سيرته طابع تلك الأحداث لتلك الفترة، الطابع السياسي وبداية السرد التاريخي، للدخول إلى عمق الحدث المؤثر فيما بعد، إذ إن لكل كاتب من أصحاب تلك السير هدفا ومطلبا رئيسيا، يكنه في أعماق نفسه الداخلية، يرغب في البوح به إلى المتلقي. لكن جانب الطفولة لديه جاء شحيحا جدا مضفيا على سيرته الجانب التاريخي البحت في كتابة السيرة الذاتية.

ب ــ **الأسرة:** الوالد، الوالدة، الإخوان، الأصحاب.

يحتل الحديث عن الأسرة مكانة هامة في سياق السيرة الذاتية، إذ يتشكل الفرد بدءا في إطارها، ومنها يستمد مجموعة القيم الاجتماعية والثقافية.

وعلى مر العصور، لعبت الأسرة دورا هاما في تنشئة الأطفال تنشئة اجتماعية، ضمن منظومة واحدة من القيم والمعايير السائدة في المجتمع، وعملت على تدريب الأطفال في تحمل المسئولية والشجاعة والاعتماد على النفس، وتكوين شخصية الطفل وإكسابه عادات وقيم المجتمع الذي ينتمي إليه، ونتيجة لهذا نجد أن الأسرة منذ البدء تتأثـــر بما يحيط بها لذلك الواقع المعيش، من حيث الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية والدينية، ويكون بصلاح الأسرة صلاح للمجتمع كله، وفسادها ينعكس على المجتمع بالفشل وعدم النجاح.

من هنا، جاء معظم السرد المتعلق بالأسرة في السير موضوعا دالا على حالات من الترابط الوثيق والتعاون، ولم نلحظ حالة من الفوضى أو الشذوذ عن قواعد الأسرة المنتظمة، إذ نجد أن الجميع كان يعيش في أسرة بسيطة محبة متعاونة مع بعضها، لكنّ هناك تباينا

واضحا فيما بينها نتيجة للظروف المعيشية المختلفة آنذاك. ونلفت النظر إلى النزعات الأبوية الإيجابية في جميع السير، وذلك لعدم وجود نزعات سلبية في السير كافة.

ثمانون سليمان موسى

يقول سليمان موسى في سيرته الذاتية: "وإذا كنت عانيت من وضع اجتماعي، فإن معاناتي كانت محصورة في ضيق ذات اليد، وفي وفاة الوالد وأنا بعد صبي صغير، وفي نشأتي في بيئة بدائية غشيمة"(١). ونظرا لوفاة والده وهو في سن مبكرة، وقع الهم الأكبر على عاتق والدته في تربيته وتحقيق طموحاته، وبالرغم من هذا كان يكن لوالده محبة صادقة واحتراما منقطع النظير إذ، " تبين الدراسات الاجتماعية للأسرة العربية أن الأم هي المسؤولة عن تنشئة الأبناء، وأنها هي التي تمارس سلطانها عليهم بالفعل؛ فهي التي تدير الحياة في البيت، بينما الأب غائب عن المسرح في أغلب الأحوال"(٢). نجد أن للأم هالة وقدسية معينة، الكل كان يمجد هذا الجانب في الأم على خلاف السير الذاتية العربية السابقة التي عرض لها اليوسفي في كتابه: "كسيرة طه حسين وفدوى طوقان ونزار قباني ويوسف إدريس وسلامه موسى"(٣). أغلب هذه السير كانت تنظر للمرأة بمنظور مختلف من حيث إنها مجرد وعاء يؤدي وظيفة الحمل والولادة ثم تختفي من حياة الطفل نهائيا؛ وإنها كائن آثم يستحق التشهير والإدانة؛ إنها تحضر لتدان؛ أو يقع تغييبها والإيماء إليها إيماء عابرا... (٤)

أما صورة الوالد التي لم يعد يتذكرها، بل كانت تروى له عن طريق والدته: "لا أذكر بوضوح تفاصيل حياتي وأنا صغير، بل لا أتذكر ملامح وجه أبي. وقد عرفت من أحاديث

---

١) الموسى، ثمانون. ص٧.

2) رووكي، ص٣٧٣.

3) مؤلفاتهم هي: الأيام ورحلة جبلية رحلة صعبة وقصتي مع الشعر وأنا "أنا" أنا فقط وتربية سلامة موسى. أنظر اليوسفي، فتنة المتخيل ص٣٦ــ١٥٠.

4) للمزيد أنظر اليوسفي، مج٣، ص١٣٣.

الوالدة أنه كان إنسانا عاطفيا حنونا، غير سعيد بنصيبه في الحياة"[1]. يصف حياة أسرته المتواضعة الحافلة بالمشقات وصفا دقيقا، عاشت هذه الأسرة في جو من الحرمان والفقر وقلة في الموارد، إلا أنها رغم كل هذا استطاعت أن تتغلب على الصعاب والعقبات، ويصبح لها كيان بين الناس ويشار إليها بالبنان، وهذا مطلب سير ذاتي يود صاحب السيرة تحقيقه، يقدم فيه لما سيأتي.

مدارات الذاكرة لفالـــح الطويل

هناك حضور واضح للأب بالغ الأهمية في سيرة الطويل، فهو لم يكن ليفارق أباه أينما حل سواء في المضافة أو في السفر إلى حيفا... ، وهو ما ينسجم مع صورة الأب البطولية كما ترسمها كثير من السير الذاتية العربية "أما الأب فإن الراوي يحتفي به، ويدون بطولاته حتى قبل تكون الطفل في رحم أمه. فيسند إليه من الصفات ما يجعل منه كائنا نموذجيا يجمع إلى النبل والشهامة والكرم ومكارم الأخلاق. إنه صاحب "حدس مرهف." "[2].

أما الأم فيشار إليها إشارة عابرة، ولم يذكر الطويل لها من الأحداث ما يجعلها مميزة فـــي تلك السيرة، على العكس من الصور الساطعة التي يرسمها لوالده.

ومن خلال ما تقدم، نلحظ أنه شديد التمسك بأسرته من خلال الصور التي يستحضرها في معظم مراحل سيرته، فهو يستحضر صورة شقيقه محمد الذي كان يكبره، أحبه كثيرا نتيجة لرعايته له وتودده إليه، كان يستقبله بحفاوة بالغة الأهمية في أثناء قدومه من حيفا.

---

1) الموسى، ثمانون. ص١٠.

2) اليوسفي، مج٣. ص٩٣ - ٩٤.

وعن الأقارب والأصدقاء يذكر حديثا شائقا، بأنه كان مثار اهتمام الجميع، الكل يحبه ويرعاه على الرغم من مطاردة أبناء عمه له في حال اختلافه معهم، قائلا: "فقد تزوج سبعة من أعمامي بنات عمهم ، فجاء أقراني أولاد عم وأولاد خالات. وكنت لذلك الوحيد بينهم الذي لا ينتسب إليهم. فأمي من قرية أخرى ومن عشيرة أخرى. لذلك كثيرا ما كنت أصبح مطاردا إذا اختلفت مع أحدهم، فليس لي من الحقوق بينهم ما لا يكترثون به من تلك الحقوق. ولا أتمتع برفقة واحد منهم إلا إذا كان ضعيف البنية أو كان بعيدا عن الجماعة، أو كان ابن أم غريبة مثلي"(١).

من خلال نصوصه السرديـــة، نجد أن العمق الدلالي الذي يوحي إليه، يكشف لنا عن كثير من بواطن الأمور، متمثلا في الحضور الشخصي المتعدد الأغراض لكافة الاتجاهات والمواقف، إذ "تبدو الذات الكامنة أشبه كثيرا بالشخصية متعددة الوجوه، حيث يكون للمرء شخصية أخرى غير معلومة للنفس الواعية تظهر من وقت لآخر، وحيث يبدو ثمة شخصيتان منفصلتان لدى الإنسان الواحد" (٢).

وتتجلى صورة الذات في السيرة هنا: ذكية، فطنة، طموحة، مختلفة عن الآخرين، يمتلك حضورا مميزا مما يشي بما سيكون عليه في المستقبل. وهذه صورة إعلائية للذات تعتمد على الاسترجاع الانتعاشي الذي يلائم حاضر الشخصية الساردة ورؤيتها الذات الآن، وكما كانت.

رحلة العمر لعبد السلام المجالي

1) الطويل، مدارات الذاكرة، ص١٦.

2) ستيفن أندرياس، **كيف تغير ذاتك وتصبح الإنسان الذي تتمنى**.٢٠٠٥، ص٢٠٨.

يأخذ مفهوم الأسرة لديه منحى آخر، نظرا للظروف الجيدة التي عاشها في كنف والديه، واصفا إياهـا بالبساطة والهناءة، كانت تتميز بعمق الروابط وأواصر المحبة، قائلا: "هل هو شيء غريب، أو ربما يوحي بالغرابة، أن يكون المرء مجاليا كركيا، وفي سني وظروفي، ووالدته شامية؟ ففي مطلع هذا القرن كان الاستمرار في تحقيق التماسك الأسري يفرض الزواج من الأقارب، لا بسبب الحفاظ على ما يسمى "نقاء العرق" كما يعتقد البعض، بل لأن العادة درجت على ذلك واستحكمت ورسخت. وهي أحد العوامل المحافظة على الأسرة متماسكة" (١).

هذه الصفات التي يتحدث عنها، تمثل شكلا من الافتخار والإعلاء للعائلة بل إن التمثل بإرث الوالد هو "هالة من تصوف"، كما يقول المجالي في سيرته الذاتية، ونلحظ تعلقا وتأثرا شديدا بوالده، فقد اقتبس منه أشياء كثيرة ساعدته على امتلاك العزيمة والقوة وتخطي الحواجز فيما بعد، وهكذا: "ترتسم صورة الأب بهية نورانية أخاذة، فيقع الحديث عن الأب وفق نسق ممعن في المداورة بموجبه يتمكن الكلام من فتح صورة الأب على ما به تصبح مجسدة للأبوة الحانية الحامية من جهة كونها قيمة بشرية خالدة"(٢).

ويتحدث المجالي عن مكانته الخاصة المميزة عند والده، يقول: "وذات يوم، تجرأت وفاتحته، بل رجوته قائلا: "يا أبي أرجوك ألا تميزني بهذا الحب لأنه قد يجر عليَّ المشاكل "فابتسم رحمه الله وقال: يا عبد السلام، هذا قلبي ولا أستطيع إخفاء مشاعري" (٣).

أما معزته لشقيقه الأكبر عبد الوهاب، الـذي كان يتخذه بمثابة الأب والأخ والصديق،

---

1) المجالي، رحلة العمر. ص١٥.

2) اليوسفي، مج٣. ص١٠٣.

3) المجالي، رحلة العمر. ص٣٢.

نوجز له في القول التالي في مقدمة الإهداء في سيرته الذاتية: "إلى روح شقيقي الحبيب عبد الوهاب الذي رافقته معظم رحلة العمر، فكان الأب والأخ والصديق. ولو أن الله كتب لي أن أموت قبله، لكان سيكتب هو هذه المذكرات ويهديها إلى عطا الله وخديجة وعبد السلام"(١).

والواضح أن المجالي يرسم صورة إعلائية ممجدة للأسرة، ومكانتها، وطبيعة العلاقة التي تربط بين أفرادها، ولا شك أن هذا يعود إلى الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها، فهو من أسرة لها مكانتها الاجتماعية، وأسرة تفخر بإرثها "الأسري" أو القبلي، كما هي الحال في معظم شرائح المجتمع القبلي ولذا فإن من المفهوم أن تسعى السيرة إلى التعبير عن هذا الواقع الاجتماعي والقيمي الذي يحكم الفرد والمجموعة التي ينتمي إليها على حدّ سواء.

أما النواة الأولى لتشكل الأصحاب، فكانت تتم عادة في الالتحاق بالمدرسة، تكونت لدى الجميع مجموعات من الرفاق، بدأت تظهر للعيان في مدرسة السلط التي كانت تشكل معلما بارزا ومطمحا لدى كافة الناس في الدراسة هناك، يقول: "وأحب أن أقول إن رابطة الصداقة بيني وبين ممدوح الصرايرة كانت في أقوى أحوالها في أثناء دراستنا في السلط"(٢).

العودة إلى الهدأة لوهدان عويس

نجد عند عويس منظورا آخر في استعادة الماضي للأسرة التي عاش في كنفها، إذ يعزو الفضل في تنشئته الأولى على أســـاس متين وثابت لوالدته، التي صبرت وتحملت المشقات والصعاب لتحقيق طموحاته، قائلا: لقد أنشأت أمي أبناءها نشأة سوية أساسها

---

1) المصدر السابق، ص٥.

2) نفسه، ص٤٣.

المحبة والصدق والاستقامة. رعتني رعاية خاصة منذ طفولتي وألحت على والدي كي أكمل دراستي؛ إذ كانت تتوسم فيَّ الخير وتتوقعه مني" [١].

وهو بهذا الحديث عن الأم ودورها يقدم نموذجاً متبايناً غير سائد في كثير من السير التي تغيبها. [٢].

وعن ذوي الفضل عليه، إضافة إلى والديه شقيقه الأكبر إبراهيم، قائلا: "ثلاثة كان لهم الفضل والأثر الكبير في تربيتي: أخي الأكبر "إبراهيم" وأبي "أيوب" وأمي "شفيقة". لقد ذكرت اسم أخي أولا لكوني كنت أهابه وأطيعه أكثر من طاعتي لوالدي. وهو أول من علمني الحرف وأشرف على تربيتي تربية مسيحية صارمة، وغرس في قلبي قيم الإيمان والصدق والمحبة.ولا يعني ذلك ، أنه لم يكن لوالدي المؤمن ووالدتي المؤمنة دور في ذلك، فكل منهما أدى دوره"[٣].

إن هذه الصورة التي يستحضرها لشقيقه إبراهيم وغيرها في ثنايا السيرة لديه تجعل من إبراهيم هالة ذات أبعاد دلالية عميقة، مضفيا عليه سمات وجدانية وروحانية اكتسبها من التعاليم الدينية المسيحية، "لقد أخبرنا هو فيما بعد أن هاتفا داخليا دعاه لأن يترك حياة العالم ويحيا حياة روحية"[٤].

أوراق الشتات لرجا سمرين

---

1) عويس، العودة إلى الهدأة، ص٣٤.

2) أنظر اليوسفي، ص: ٩١ وما بعدها.

3) عويس، العودة إلى الهدأة، ص٣٦.

4) المصدر السابق، ص٣١.

يصف أسرته ضمن مرحلتين: مرحلة الطفولة، مبينا أمجاد والده وبطولاته في بلدة قالونيا ووقوف والدته معه في معاناته، والمرحلة الثانية، كانت في مصر بعد أن تعرف على سيدة وتم زواجه منها لتبدأ تتشكل لديه الأسرة الجديدة.

أما عن بداية الأسرة الأولى فكانت الانطلاقة من بلدة قالونيا، قائلا: "بدأت أسرة محمد سمرين الصغيرة مسيرتها مع الحياة في قالونيا"(١). مبينا الدور البطولي الذي لعبه والده في أثناء الثورة، حيث هاجم أهالي القرية بقيادة والده مجموعة من المستعمرات، وقد أحرق المهاجمون عددا من بيوت المستعمرات. قائلا: "وفي إطار هذه الثورة الشاملة فإن وفائي لقريتي يفرض علي إبراز دورها ودور والدي بالذات فيها"(٢). وهنا نلحظ نسيانا كاملا للدور الذي تلعبه الأم تماما يقع تمجيد الأب، ويقع الإلحاح على أن الأب هو الطريق وهو السبيل المؤدية إلى الأمجاد(٣).

نلحظ تحولا في حديثه السردي، بعد أن كان يروي القصص البطولية لوالده ومعاناته وأسرته في التنقل والترحال، أصبح الآن الحديث يأخذ منحى آخر، متحدثا عن المرحلة الثانية الجديدة وعلاقته بسيدة وزواجه منها و تشكيل أسرته الثانية ومصورا معاناته الشديدة التي واجهته في غير بلد عربي: بيروت ومصر والسعودية والكويت والجزائر ومن ثم الاستقرار في الأردن، إن هذا التنقل من بلد إلى آخر شكل لديه حالة من عدم الاستقرار، مشكلا ذلك لديه حالة نفسية من الكآبة، ومما زاد في هذه الحالة، نبأ استشهاد ابنه محمد!!

---

1) سمرين، أوراق الشتات، ص٧١.

2) نفسه، ص٨٢.

3) أنظر اليوسفي، ص٩٦.

أصبح الحزن سمة عامة لتلك الأسرة، قائلا: "أما نحن كأسرة فقد أصبحت الكآبة سمة بارزة تطبع حياتنا وتلقي بظلالها القاتمة عليها"[١].

أما بخصوص الأصحاب، كان صديق العمر لديه الشاعر السوري علي دمر، إذ شكل موته مفاجئة كبرى له وأزعجه كثيرا، قائلا: "كان أول شيء فعلته هو أنني رثيت صديقي عليا بقصيدة مؤلفة من ٤٢ بيتا، وهي متنوعة القافية وقد جعلت عنوانها "أين الذي ذاب وجدا...؟! ولكن رثائي له لم يتم إلا بعد انقضاء سنة كاملة على وفاته، وكأني بالحزن مثل الخمر التي تصبح أكثر تأثيرا كلما تقادم عليها الزمن"[٢].

إن اغلب السير المعنية في الجانب الخاص بالأسرة، تقدم صورة الأب البطل وتمجّد شخصيته، تجده حنونا أحيانا؛ عاش على الأغلب حياة صعبة، عانى كثيرا من قسوة الأيام وضيق ذات اليد كما عانى أبناؤهم معاناة شديدة، تكللت بالنجاح والتوفيق فيما بعد.

أما صورة الأم، فقد وصفت في غير موقف بالمربية الفاضلة، التي ترعى أولادها خير رعاية، والتي تقع المسئولية الكبرى عليها في أغلب الأحيان في إدارة شؤون الأسرة، ولم نلحظ أحدا استحضر صورة الأم السلبية في كافة السير. هذا ما تمثل لدينا في تلك النصوص الحافلة بالصور الإيجابية للأسرة[٣]. حب الوالدين وطاعتهما واحترامهمـا واجب على كل مؤمن بالله، نقرأ في الإنجيل: "أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلهك، ونقرأ في القرآن وصية أكثر وضوحا: "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما

1) سمرين، أوراق الشتات، ص٣٧٢.

2) نفسه، ص٣٧٩.

3) للمزيد أنظر رووكي، ص٣٣٧، الأسرة الأبوية. يتحدث فيه عن صورة الأب والأم إيجابا وسلبا.

وقل لهما قولا كريما"[١]. بهذه الآية الكريمة[٢]، نختتم هذا الدليل على ما نحن بصدد الحديث عنه في تمثل تلك السير للتعاليم السماوية السمحة، ويكون أصحاب هذه السير قد قدموا سمات عامة للترابط الأسري المتين، وقدمت هذه الأسر الأبوية لذويها كافة أشكال الدعم سواء كان معنويا أو ماديا، لإكمال مسيرتهم وبلوغهم الهدف الذي يصبون إليه في تلك الفترة، على الرغم من القلة والفقر والعوز لديهم جميعا، ويكون قد أثروا وأثروا فينا إحساسا عميقا بتمثل الحدث والتعايش في أجوائه، وهذا يؤكد أن الاسترجاع السردي لما مضى استرجاع قائم على التعبير عن ذات يملؤها الفخر والاعتزاز، لرد الجميل لأولئك البناة الأوائل، في إظهار واقع جزئي من الحال المعيش في تلك الفترة، ونقل صورة تلك الحياة كما يراها كتاب السيرة.

ت ــ القبيلة

"إن المرء يجد في الحديث عن أصوله متعة مشروعة ومن حقه أن يشعر إزاء أجداده بنخوة تضاهي تلك المتعة"[٣]. ولعل هذا ما تؤكده السير الذاتية التي ترسم في الغالب صورا تمجيدية للقبيلة، وبخاصة أن أصحابها ينتمون في معظمهم إلى مجتمعات ذات طوابع قبلية راسخة، ففي مدارات الذاكرة يقول الطويل: "يفتخر أهل حكما بأنفسهم ــ كانوا جميعا من عشيرة البطاينـــة في ذلك الوقت ــ ويرون بأنهم ذوو شجاعة وكرم، ويغضبون إذا أنكر عليهم أحد ذلك. ولكي يستحقوا اعتراف الآخرين بهذين الصفتين، فقد كانوا كرماء حد المبالغة"[٤].

1) رووكي، ص٣٣٩.

2) سورة الإسراء، آية ٢٣.

3) ماي، ص١٤١.

4) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١٣.

وفي قراءة ثانية لسيرة الموسى "**ثمانون**" يعيد جذوره الأولى لقبيلته ــ التي كانت تقيم في مدينة "عولم" بين بيسان والناصرة ــ إلى لبنان دير القمر، من ثم النزوح إلى أراضي الدولة العثمانية ثم إلى دمشق ثم الاستقرار في قرية الرفيد "الأردن". بهذا التسلسل العريق لهذه القبيلة، يستحضر الموسى عراقة وقدم هذه القبيلة الضاربة جذورها في التاريخ، لتضفي تميزا وبهاء على سيرته الذاتية.

وفي المقابل نلحظ طرحا آخر لدى المجالي في "**رحلة الأيام والأعوام**"، بالحديث عن قبيلته بالفخر والاعتزاز وعن الجذور الأولى للعشيرة. يقدم صورة الذات، ملؤها الأمل والفخر معبرا عن ذلك ومعتزا بعشيرته، وكيف جلوا من مدينة خليل الرحمن إلى الأردن، وتم تسميتهم بعد ذلك بالمجالية بعد أن كانوا من عشائر بني تميم.

إن حبه لعشيرته واعتزازه بها وتمجيدها، يأخذ لدى المجالي أبعادا مميزة نتيجة لمركزية الحضور للعشيرة في المجتمع العربي، وأهميتها في تكوين قيم اجتماعية معروفة لدى عامة الناس داخل المجتمع الأردني.

أما القبيلة لدى وهدان عويس "**العودة إلى الهدأة**"، فيعود بجذور عائلته إلى عهد قريب بنا إلى أوائل القرن التاسع عشر في إحدى قرى الكرك ومن قرية تدعى كثربة، وأنهم تعرضوا للغزو من قبل آل عمرو، الذين نهبوا بيت عويس واقتادوه ودقوا رأسه في قلعة الكرك، ثم تفرقت هذه العائلة إلى مناطق مختلفة إلا أن والده عاد إلى دبين واستقر بها(١).

وأما القبيلة لدى رجا سمرين في "**أوراق الشتات**"، فنجد أنه يرد أصولها التاريخية إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، وأن أجداده قد عايشوا جميع العصور التاريخية التي مرت على فلسطين، بدءا بالعهد الراشدي ومرورا بعهود بني أمية وبني العباس والفاطميين

---

1) أنظر سيرته الذاتية.

والأيوبيين والمماليك والأتراك وانتهاء بعهد الانتداب البريطاني، الذي اجتثهم من جذورهم وقام بتشريدهم خارج الوطن الذي ورثوه عن الآباء والأجداد لآلاف السنين، أوجز لنا تاريخا فذا لقبيلته التي عاشت على أرض فلسطين منذ أقدم العصور، بهذا العرض التاريخي الضارب في عمق التاريخ، يقدم رسالة مفادها الأحقية والأولوية في البقاء على أرضه السليبة. إن استحضاره لهذا التاريخ، ليدل به في أحقية العودة إلى وطنه الذي شرد منه، من هنا، تأتي أهمية السرد في استحضار صورة القبيلة، "لتبرهن على حقه الشرعي في البقاء والاستمرار"(١).

ومثل هذا الحديث عن القبيلة في السير موضوع البحث، تؤشر على طبيعة المجتمع القبلي الذي زرع في الفرد هذه الروح التي تلحّ ليس على عظمتها الذاتية حسب، ولكنها تتجاوز ذلك إلى "القبيلة" بما تمثله من دلالة محورية في الحياة العربية، وهو إلحاح يمكن أن يرى بوضوح في الثقافة العربية بعناصرها ومكوناتها كافة، لكنه يمثل في السيرة الذاتية نمطا مميزا من خلال حديث الذات مباشرة عن بعدين: الأنا والقبيلة، وقد ظهر في السير جميعها أن البطولة والإعلاء من شأن الذات يتأسس على تفردها وتفوقها، وعلى عظمة القبيلة التي تضرب جذورها في أعماق التاريخ.

ج ــ الأماكن

يشكل المكان ركنا أساسيا وأهمية بالغة في كتابة السيرة الذاتية لمرحلة الطفولة وخاصة القرية، نجد أن الأغلب كان يجد متعة في الحديث عن تلك الأمكنة والمحيط البيئي الراسخ في أذهانهم حتى هذه الأيام، نتيجة للذكرى الأولى العزيزة على قلوبهم، نلحظ ذلك في حديث الموسى في سيرته الذاتية إذ إنه يخص المكان بسمة خاصة، يبدأ الوصف لقريته

---

1) رووكي، ص٢٧٧.

"الرفيد" التي تقع في شمال الأردن، تحدث كثيرا عن سهولها وهضابها وأغدق عليها من الوصف كثيرا نتيجة لحبه لها وللذكريات الأولى التي عاشها فيها، وقد أفصح كثيرا عن الواقع المعيش داخل حدود القرية من فقر ومعاناة، قادته لأن يطمح إلى الخروج من هذا النطاق المحدود إلى أمكنة أوسع وأرحب تلبي طموحه ورغباته فيما بعد.

وفي سيرة الطويل، يصف القرية بأنها كانت محصنة، بنيت من الحجر المميز في خمسة مجمعات، قائلا: "درج الناس في أغلبهم أن يجلوا عندنا، لأن حكما قرية محصنة. فقد بنيت من الحجر في خمسة تجمعات، أقيمت أربعة منها حول مقورة"(1). متحدثا عن المضافة بالاعتزاز والفخر، لأنها كانت تمثل قيمة اجتماعية لدى الناس، لهذا جاء حديثه عن المكان وطريقة البناء المعماري في تلك المرحلة من طفولته الأولى، بوصفها في تعميق الروابط وزيادة أواصر المحبة لدى الجميع.

أما المجالي فإنه يقدم سرده لهذا الجزء بإيجاز، إذ إن مسقط رأسه كان في قرية "الياروت"، ومحل إقامته وأسرته في مدينة "الكرك"، يصف لنا مشهد الحصاد وجني المحصول في أثناء قدومهم من مدينة الكرك في العطل الرسمية، ثم يقدم صورة حقيقية من العادات والتقاليد كانت سائدة آنذاك، ممثلة في إكرام الضيف في بيت الشعر.

وفي "العودة إلى الهدأة" لوحظ أن الصورة يتخللها فن جميل جدا في وصف المكان وطبيعته الساحرة، وعن اختياره للمكان تحت شجرة الهدأة، يقول: "اخترت هذا المكان للكتابة، لكون الطبيعة حولي والتضاريس التي أراها أمامي تذكرني بطفولتي وربيع عمري.

1) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١١.

وهذه التضاريس لم تتغير كما تغيرت أنا، بل بقيت كما هي تصارع الزمن وتتحدى عوامل الطبيعة"[١].

ومن ثم يستطرد بالحديث والوصف لتلك الأمكنة الخلابة: من غابات "الدلاعي" و "الديسي" والأودية وادي "جملة" ووادي زقيقة ومنطقة الكروم ونبع الماء المسمى "عين دبين" واصفا إياها "دبين، موقـــع أثري قديم منسي، قيل إن تاريخها يرجع إلى ما قبل الميلاد، حيث كانت تدعى "دبير"، وقد ذكر هذا الاسم في أحد أسفار "العهد القديم" ووصف بأنه موقع في أحد سفوح جبال جلعاد، مليء بالغابات وفيه عدد من ينابيع المياه"[٢].

وفي صورة أخرى للمكان والمحيط البيئي، يستذكر صورة والده في أثناء عمله في الأرض، إذ لدغته أفعى وعانى كثيرا في الوصول إلى المستشفى، إلا أنه على إثر هذا ما لبث أن فارق الحياة!! هذا الاستحضار لطبيعة المكان وتصوير لوعة والده، يدل على حب التضحية والمعاناة الداخلية في إصرارهم وصراعهم من أجل البقاء نتيجة حبهم الشديد للأرض، والذي يعطيهم قيمة عالية للحياة.

إن استحضار تلك الركائز الهامة في السيرة الذاتية، يعطي تأملا أدبيا للنصوص في جلب الهام وتأصيله في النص، ليعطي البعد والعمق الدلالي للمكان بمنظور أدبي ثاقب. لهذا جاء تعبير كوهين عن أهمية المكان في السيرة الذاتية: "السرد عن الأماكن شديد الأهمية في أعمالهم، كما أن النظرية الأدبية تقول لنا: إن الأماكن تحظى بذلك الاهتمام الشديد في بنية

---

1) وهدان عويس، سيرته الذاتية. ص٢٤.

2) نفسه. ص٢٦.

النص المتخيل، وربما كان ذلك كذلك لأن مكان القصة قد يكون تعبيرا رمزيا عن الشخصية"(١).

يقدم رجا سمرين في "أوراق الشتات" وصفا عاما للمكان، متمثلا في قريته التي تبعد سبعة "كيلو مترات" غرب مــدينة القدس، قائلا: إنها مدينة صغيرة شيدت منازلها من الحجارة البيضاء، التي أكسبتها منظرا بديعا أخاذا يسر الناظرين، تحيط بها من الجوانب الكروم والبساتين، تبعد عنها بلدة عين كارم ثلاثة "كيلو مترات"، مشبها مدينته بمدينة السلط، ذاكرا العيون وأسماءهــا ومجموعة كبيرة من الآبار كانت مدعاة الخير والبركة في القرية.

بعد هذا الاستعراض للمكان نجد أن الجميع يهتم كثيرا بهذا الجانب في كتابة السيرة الذاتية، لدلالته الواضحة وعراقته التاريخية في ربط الماضي بالحاضر، من خلال الاسترجاع الدال في جلب الصورة الحقيقية لتلك الأمكنة خاصة القرية، لتأخذ دورها في تشكيل مرتكزات أساسية في اكتمال عناصر السيرة الذاتية، والذي بدونه تفقد الكتابة لذتها ومرجعيتها. فجاء وصفهم للأمكنة معبرا وقد تجلت لهم الذاكرة بأروع صورها، فجاء الوصف دقيقا للقرية والظروف البيئية المحيطة، لذا جاء السرد متناغما مع طبيعــة تلك الأمكنة، التي كانت تجمعهم بها أروع الذكريات الحميمة في واقع كان يشوبه الفقر والصراع من أجل البقاء.

هذا يحيل بنا إلى المفهوم السابق للسيرة الذاتية: بالتركيز على الجانب الهام والمميز للخطاب السردي، في عملية بناء السيرة الذاتية بخطى ثابتة وحقيقية، في ذات مبدعة وطموحة كانت تعيش واقعا اجتماعيا صعبا في الزمن الماضي. إذ تأتي السيرة الذاتية نابعة من العقل، الصورة الخيالية تبعدها عن ماهيتها الحقيقية وعبقرية الشخص ترتبط بالعقل أكثر

---

١) رووكي، ص٢٥٥.

من الخيال، "ولا ريب في أن الذين يزاولون كتابة السيَر كثيرون، ولكني إنما أعرض نمـــاذج متفاوتة، وعلى تفاوتها فإن أصحابها يشتركون في خاصية واحدة، هي اتصال إنتاجهم الأدبي بالذهن أكثر من الخيال"[1].

1) عباس، ص٧٢.

الفصــــل الثاني

الواقــع الحياتــي فــي الــأردن

الحياة الاجتماعية، السياسية، الثقافية.

الواقع الحياتي في الأردن: الحياة الاجتماعية، السياسية، الثقافية

من خلال قراءتنا للسير الذاتية الصادرة في الأردن للفترة ما بين عامي ٢٠٠٠ـ ٢٠٠٥م، نجد أن الواقع الحياتي كانت سمته العامة البساطة، ويعد هذا طبيعيا نتيجة للبدايات الأولى للدولة في ظل العهد السابق للملك "عبدالله الأول"، الذي أخذ على عاتقه ــ كما أسلفنا ــ السير بالأردن نحو الأفضل حيث التطور والنماء فيما بعد:

ولعل أبرز ما يميز البنية الأساسية للمجتمع الأردني في تلك الآونة فئتان: القرويون وفئة البدو، وكان لهاتين الفئتين من التصارع وشن الغزوات من قبل البدو إبان الحكم العثماني للمنطقة، الأثر الكبير في المجتمع.

وفي هذا المجال بين سليمان موسى ذلك، بالقول:"إن تخلف النظام الاجتماعي والاقتصادي للدولة العثمانية، وتعدد أساليب الاستغلال جعلت المنطقة ساحة للفوضى. فلم تقم الدولة العثمانية بأي إجراء من شأنه الحد من السيطرة البدوية لمنع نهب المحاصيل الزراعية، وتحويل الأراضي الزراعية إلى مراع لمواشيهم"(١). وفي نظرة فاحصة لتاريخ شرق الأردن نلحظ حالة عدم الاستقرار، وكان لا بد من نظام يحكم الأفراد وينظم أمورهم لضبط سلوكهم وتحديد العلاقة بينهم، والنظام الذي يعنى بكل هذه الأمور هو ما يعرف **بالنظام السياسي،** فقد عرفه ماكس فيبر M.veber,: "ذلك النظام الذي يضمن تنفيذ الأوامر في منطقة معينة الحدود وبصورة مستمرة بواسطة سلطة فعلية عن طريق هيئة إدارية دائمة"(٢).

---

١) منيب الماضي، سليمان موسى، تاريخ الأردن في القرن العشرين/ ١٩٠٠ـ١٩٥٩م. ١٩٨٨، ص٦ـ ٧.

2) Veber, M: **The Theory of Social and Economic Organization**, Trans. by A. M. Henderson and Tallcot Parsons, Oxford, Univ. Press, New York, 1957, P154.

كان الوعي السياسي في بداياته الأولى لتأسيس الدولة الأردنية ضعيفا جدا، بسبب انتشار الأمية وقلة عدد المتعلمين، وقد سعى الأمير عبدالله إلى الحصول على الاعتراف الدولي بالكيان السياسي الأردني "جـاء في المادة ٧٢ من القانون الأساسي النص على الاعتراف باستقلال الأردن وبحق الأردنيين في تكوين الجمعيات"[١]

لقد مرت على الأردن سنوات صعبة وعصيبة، وكانت تأتي هذه الصعوبات إما من الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، وإما من دول الجوار، وأحيانا أخرى من الأفراد داخل المجتمع الأردني ممثلة بالأحزاب والتنظيمات السياسية، فكان كل هذا يثير بلبلة داخل المجتمع من الاغتيالات السياسية وتصفية الحسابات الشخصية وقد عبر الجميع عن هذه المحاور ـــ أصحاب السير المعنية بالدراسة ـــ في سردهم للواقع السياسي داخل الأردن: بأنه كان يقع على عاتق النظام في الداخل مجموعة من المحاور ، نجمل منها: قضية الشعب الفلسطيني، وترطيب الأجواء الداخلية وترتيب البيت الأردني، فكان أن أنشئت المؤسسات الديمقراطية والعمل المؤسسي بروح الفريق الواحد، وأخذت الرؤى والأفكار تتباين وتتضح لدى الجميع والتي سنعرج عليها بشكل مفصل فيما بعد.

المحور الآخر يتضمن: بناء الأردن الأنموذج في الرعاية الشاملة لكافة مرافق الدولة الأردنية، فشهد الأردن بذلك واقعا ثقافيا ملموسا بالغ الأهمية والخصوصية في حياة الأفراد، فكان لتلك السير ممثلة بأصحابها دور واضح في إبراز هذا الجانب في نصوصهم السردية، في التركيز وإبراز الأهمية القصوى له، مركزين على العادات والقيم والأعراف والأخلاق والأفكار والأديان والقانون في تشكل عناصر الثقافة، وتشكيل ملامح تاريخ الأردن وحاضره

---

1) الماضي، الموسى. ص٢٨٠.

ومع تنامي إدراك أهمية الثقافة ودورها تنامى الاهتمام بها، إذ ظهرت الجمعيات والمنظمات الثقافية الوطنية وانعقدت المؤتمرات الثقافية الوطنية، ما زاد التحام الثقافة بالاقتصاد. وكان لنشوء الجامعات ــ فيما بعد ــ الدور الهام والواضح في إثراء العملية الثقافية، وقيامها بالدور الريادي في تعزيز علاقة الثقافة بالعلم وترشيدها وإنمائها.

بهذه الأسس المختصرة لواقع الحياة العامة للمجتمع الأردني، يكون أصحاب السير المعنية بالدراسة قد سبروا أعماق المجتمع الأردني، ممثلا في عناصره البيئية والعادات والتقاليد، إذ إن هذه الظروف الاجتماعية على علاقة وثيقة بالأدب، حسب تعبير "تين، وسنت بيف" عن المنهج الاجتماعي في النقد الأدبي: "... فهو لا يقتصر على دراسة شخصية الأديب، بل يرى أن هذه الشخصية لم توجد بنفسها، وإنما خلقتها مؤثرات اضطرارية صبتها في القالب الذي هي عليه. هذه المؤثرات هي: الجنس، والزمان، والمكان"(١).

وسوف نعرض تاليا لتلك النصوص الحافلة بالوقائع والأحداث، في قالب سردي استرجاعي، ضمن إطار السيرة الذاتية لتلك المرتكزات التي عاشها الأردن في الفترة السابقة، ونبدأ بالواقع الاجتماعي لتلك السير، إذ نلحظ في سيرة سليمان موسى "**ثمانون**"، بأن وصفه للواقع، تمثل في جلب الصورة الحقيقية التي كان يعيشها داخل حدود القرية، واصفا ذلك الواقع الحميم ما بين الأفراد بأنها علاقات كانت تقوم على الود والاحترام والتعاون في شتى مجالات الحياة على الرغم من الفقر والعوز لأولئك الأفراد، حياة بدائية بسيطة في كل شيء، قائلا: "وفاة أبي تحمل الدليل على بساطته من جهة وعلى الوضع البدائي الذي كنا وأبناء القرية، نعيش فيـــه"(٢). وبالرغم من العوز والفقر لتلك الطبقة الاجتماعية في القرية،

---

1) أحمد أمين، النقد الأدبي. ١٩٦٧، ص٤٠٣ .

2) الموسى، ثمانون. ص١١.

إلا أنه كان هناك ما يسمى بالاكتفاء الذاتي لسكان تلك القرية بنسبة ٩٠% وبقي هذا المعدل مستقرا إلى حد كبير حتى الحرب العالمية الثانية.

وينتقل إلى صورة أخرى وهي معاناة أفراد المجتمع آنذاك في طريقة الحصول على الماء، بطريقة بدائية من النبع الذي يبعد عن القرية مسافة ثلاثة "كيلو مترات"، إذ كان النساء يذهبن إلى العين ويملأن القرب وسطول التنك بالماء ويحملنه، ويواجهن بذلك صعوبة بالغة ومعاناة قصوى عاقدا بذلك مقارنة بين فتاة الأمس وفتاة اليوم، قائلا: "فالحياة الرخية الطرية التي تعيش الفتاة في ظلها الآن، لا تقارن بحياة العمل الشاق في القرية والتي استمرت حتى منتصف هذا القرن"[١].

من هنا، فإن بداية الموسى في قرية الرفيد، كانت تمثل بساطة متناهية وشحا في الإمكانات داخل القرية، على الرغم من تنامي الطموح لديه وازدياده يوما بعد يوم، قائلا: "كان حظي أن أولد في قرية بدائية ساذجة، ولم تلبث القرية أن ضاقت بي وضقت بها خرجت أبحث عن حياة أكثر اتساعا وفي يافا وجدت الطموحات متنفسا لها"[٢]. لهذا نجد الطابع العام المميز في سيرته الذاتية، لواقع الحياة الاجتماعيـــة، جـــاء موصوفا بالبساطـــة والبدائية، مجتمع زراعي ساذج؛ يعتمد على تربية المواشي؛ وعمل شاق لمن يستأجرون الأرض وبطالة فارغة لمن يملكونها. المطلب الداخلي الذي ينزع إليه، يتمثل في الخروج من المحيط الضيق إلى محيط أكثر رحابة وسعة، إذ لم يجد في القرية ما يحقق له ذلك الطموح الذي طالما تمناه، المتمثل بالحلم والإرادة لتحقيق ما يصبو إليه.

---

1) المصدر السابق، ص١٤.

2) الموسى. خطوات على الطريق (سيرة قلم: تجربة كاتب).٢٠٠٣، ص٩.

وفي حديثه عن الواقع السياسي: جاء حديثه متواضعا في تقديم اعترافاته بأنه لم ينتم لأي حزب سياسي، بالرغم من إعجابه بمبادئ جماعة القوميين العرب، قائلا: "وكرهت ممارسات من عرفت من البعثيين والشيوعيين"[1]. وكلفه هذا الإعجاب أن تم سجنه ومحاسبته من قبل السلطات، وفي ذلك يقول: "وفي سنة ١٩٥٤م رشح الدكتور أحمد طوالبه (مـــن سحم الكفارات) نفسه لانتخابات المجلس النيابي... فسرت معه لزيارة بعض الناس لغايات الدعاية الانتخابية، وفيما بعد تبين أن رجال المباحث سجلوا علي هذه الجولة وحاسبتني السلطات المختصة عليها لكن صلتي بجماعة القوميين انقطعت بعد أحداث نيسان ١٩٥٧م"[2]. ويتحدث عن ظروف اعتقاله، في أثناء مشاركته في مظاهرة في بلدة المفرق، ويومها تم إحراق سيارة تابعة للنقطة الرابعة[3].وكان ذلك يدل على السخط على سياسة أمريكا المؤيدة لإسرائيل وعلى سياسة بريطانيا التي يتولى ضباط منها قيادة الجيش الأردني، يقول: "اشتركت في تلك المظاهرات مع أنني كنت أعارض القيام بأي أعمال تخريب. في اليوم التالي احتلت قوات الجيش البلدة ومنعت الناس من التجمهر. تم اعتقالي عند العصر عندما كنت عائدا من مكتبة صديقي محمد السكر"[4]. وسبب اعتقاله كان نتيجة نوازع شخصية أكثر مما تتعلق بنشاط سياسي، نافيا عنه الصفة الحزبية، ويقول: "صحيح أنني كنت صديقا لأشخاص حزبيين، ولكنني لم أنضم فعلا إلى أي حزب، ولا أدري كيف ألصقت تهمة الشيوعية بي"[5].

---

1)الموسى، ثمانون ص٨٠.

2) نفسه، ص٨٠.

3) وهي دائرة كانت تتولى القيام بأعمال مساعدات إنشائية في الأردن، وتنفق الولايات المتحدة عليها، انظر الموسى، ثمانون. ص٨٣.

4) الموسى، ثمانون. ص٨٣.

5) نفسه، ص٨٦.

بعد تقديمه لمجمل هذه الاعترافات الشخصية الخاصة به، ينتقل في الحديث العام والخاص بالأوضاع السياسية الهامة التي تبلورت آنذاك على الساحة الأردنية والعالمية.

نلاحظ مما تقدم تمحور حديثه في العمل السياسي الموجز والمشاركات البسيطة على المستوى الفردي (خاص)؛ وذكره للأحداث العامة التي حدثت في تلك الفترة، يكشف عن الأمل والطموح الذي كان يحدو به في بلوغ الهدف، لم يكن في السعي وراء هذا الجانب، وإنما هناك مسعى آخر لديه يرغب في بلوغه وتحقيقه. لهذا جاء حديثه الهام والمؤثر عن بداياته الثقافية، التي غيرت مجرى حياته كليا، كانت في سن مبكرة نتيجة لما ورثه عن والده من الكتب، وهذا يعطي بعدا آخر ودليلا على أن هذا الجانب يشكل مساحة كبيرة في سيرته، قائلا: "بدأت حياتي الثقافية وأنا في الثانية عشرة من عمري، إذ أخذت أقلب في بعض الكتب التي بقيت بعد وفاة والدي"(١).

لكن بقيت الطموحات في القرية محدودة جدا، لم يستطع تغيير الواقع المفروض عليه هناك، إذ سرعان ما فكر بالانتقال إلى يافا، لتشكل له منعطفا بالغ الأثر في حياته: "كان انتقالي إلى يافا منعطفا بالغ الأثر في حياتي، كاتبا. هناك بدأت أحقق شيئا من طموحاتي الذهنية، فالكتب والمجلات متوافرة، وفي الوقت متسع كبير للقراءة"(٢). وكان أول كتاب له يرى النور (الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى)،وكان ذلك عام ١٩٣٩، قائلا: "وهو أول كتاب لي أتيح له مجال النشر فيما بعد (بعد ثمانية عشر عاما) (٣). بدأت اهتماماته الثقافية تزداد وتنمو يوما بعد يوم، ففي عام ١٩٤٠ كتب رواية طويلة بعنوان (الذكرى)(٤).

---

1). الموسى، ثمانون، ص٣٩.

2) نفسه، ص٤٩.

3) نفسه، ص٦٠.

4) نفسه، ص٦٤.

بعد عودته إلى "الرفيد" وفـــي انتقاله إلى السكن الجديد في المفرق، في عامي ١٩٤٣ـــ١٩٤٥م. لم يكن ليمارس نشاطه الثقافي السابق بشكل مكثف بسبب الظروف البيئية المحيطة "فقد كان المحيط في بلدة المفرق محيط عمل وعمال، لا علاقة له بالثقافة"(١). لكنه سرعان ما عاود مزاولة النشاط الثقافي في عام ١٩٥٣م للكتابة في الصحف والمجلات بصورة منتظمة "فقد نشرت أربع مقالات في مجلة (القلم الجديد) التي أصدرها عيسى الناعوري في عمان. وكتبت مقالات في مجلة (الأديب) ومجلة (الآداب) في بيروت"(٢). وفي العام ١٩٥٩م، نتوقف عند أهم إنتاجه الفكري وهو تأليفه لكتاب (تاريخ الأردن في القرن العشرين)، والذي أثار إشكالا ما بينه وبين الماضي حول تأليفه، مطلقا عنوانا دالا في فصول السيرة لهذا الكتاب وهو (كتاب وانفجار)(٣).

بعد تنمية هذه الموهبة الثقافية المتميزة، بدأت الثمار تنضج لديه، وبدأ الحديث يأخذ منحى آخر ـــ الطموح الذي كان يتمناه لتغيير واقع الحال ـــ ويتم انتدابه من قبل الوزير عبد الحميد شرف في تموز ١٩٦٦م لرئاسة تحرير مجلة (أفكار) وهي المجلة الفكرية الأدبية التي أنشأتها دائرة الثقافة والفنون.

بدأت الأمور لديه تتضح أكثر في مسيرته الثقافية، أخذت مداركه الفكرية تزداد وتنمو أكثر من السابق في الانطلاق نحو الآفاق، محققا بذلك بداية الطموحات والآمال، إذ شرع في تأليف كتاب (لورنس والعرب) في عام ١٩٦٠م. الذي أعطاه شهرة واسعة وصيتا كبيرا وما لقيه من أصداء عامة لهذا العمل الجاد: "كان صدور كتابي عن لورنس بالإنكليزية سندا قويا

1) المصدر السابق، ص٦٨.

2) نفسه، ص٨٠.

3) للمزيد أنظر سيرته الذاتية، ص١١٧ـ١٢٥.

لي في نظر الإنكليز، ومن هنا وجدت تجاوبا ورغبة في المساعدة ولم ألبث أن تلقيت رسالة من مدير المجلس بانه تقرر إعطائي منحة مالية لمدة ثلاثة أشهر"[١]. ومن ثم نلحظ تطور آخر في حديثه الثقافي وخاصة عن دار الوثائق البريطانية (P.R.O)، عام ١٩٦٦م. قائلا: "إقامتي في لندن كانت تجربة رائعة، وحفلت أيامها بالعمل والنشاط والإنجاز"[٢].

فيما تقدم من استحضار الصور الدلالية للواقع الثقافي، يقدم لنا رؤى واضحة الدلالة، إذ إن الطموح والآمال تتحقق شيئا فشيئا على العكس من الماضي، الذي كان يجد فيه إحباطا شديدا ومعاناة قاسية، مشكلا بذلك واقعا إيجابيا، على الصعيد الشخصي لتحقيق المطلب الذاتي والميول نحو الأفضل لصاحب السيرة في هذا الجانب، في تحقيق الطموحات والرغبات، نؤكد ذلك بالقول: "والتفسير الإعلامي للأدب، يذهب إلى أن كتابة السيرة الذاتية، فن مبني على تصور الكاتب للواقع، والحياة التي عاشها؛ فكاتب السيرة الذاتية هنا يقوم بدورين اتصاليين: دور المرسل، ودور المستقبل معا؛ ذلك أنه حينما يكتب سيرته الذاتية، يقوم بإعادة تعريف التصورات"[٣]. حينما يفسر المعلومات على أنها مختلفة عن تلك، التي كون على أساسها تصوره الحالي وقت الكتابة، أو على أنها متنافرة مع التنظيم الذي فرضه على عالمه كمستقبل"[٤]. والدليل على هذا ما كان يصرح به، بأن إرادته تتبلور في القراءة أو التأليف أو النشر أو في ترأسه لتحرير مجلة، كانت السعادة ورغبته في تحقيق حلمه ترتسم في داخله والتفاؤل يلازمه، كل هذا نلحظه في ثنايا النصوص المختصة بالجانب الثقافي، جل اهتمامه تركز حول هذا الجانب خير تمثيل لتبدل الحال وتغيره: "كنت أتوق إلى

1) الموسى، ثمانون. ص١٥١.

2) نفسه، ص١٥٢.

3) أنظر كتاب جيرالد برنس، **المصطلح السردي**. ٢٠٠٣م. أورد فيه كثير من المصطلحات السردية لذات الموضوع.

4) شرف، **أدب السيرة الذاتية**. ١٩٩٢، ص١٤٨.

تغيير الواقع الضيق الذي فرضه علي وجود أسرتي في هذه القرية، وأتطلع إلى الخروج من هذا القمقم، ولكنني لم أكن أجد من أبوح له بالقلق الذي تمتلئ به جوانحي"[١]. من هذا المنطلق فإن كتابة السيرة الذاتية، "تظل عالما غنيا، يفتح لنا المجاهيل ويضيء هوامش النص الإبداعي"[٢]، المتمثل في تلك السير الذاتية.

وفي سيرة فالح الطويل، "**مدارات الذاكرة**"، نجد الشيء الكثير من الصور الواقعية لتلك المجتمعات المتنوعة من حيث الزمان والمكان، وقائع عاشها ضمن الإطار الاجتماعي سواء في قريته "حكما" أو في قرية "سحم" التي مثلت له غربة صعبة عن قريته، لكنه سرعان ما تعايش مع الجميع هناك، بإقامة علاقات وثيقة الصلة ما بينه وبين أهالي قرية سحم. ومن ثم ينقل لنا صورا أخرى لأمكنة مختلفة، تنقل بها الكاتب من مكان لآخر، كانت تحيط بتلك القرى المجاورة له، سواء في قرية "علعال" أو في الانتقال إلى المحيط الخارجي إلى مدينة إربد وحيفا، ومن ثم الانتقال إلى العمل الدبلوماسي ضمن إطار العلاقات الدولية. إذ نلحظ تنوعا سرديا في عملية الاستحضار لطبيعة تلك المجتمعات التي عاصرها وعاش فيها، ذاكرا الأحداث والوقائع الهامة لتلك الفترة، على الرغم من المرارة التي كانت تلازمه أينما حل.

وفي جانب آخر، يتحدث الطويل فيه عن التكافل والتعاون الاجتماعي ما بين أهل القرى، خاصة قرية "علعال" ومحاربة أهلها لظروف الاحتلال الإسرائيلي يوم زحف على "بيسان" و "باب الهوى"، عام ١٩٤٨م إذ يصور لنا أن الدافع الحقيقي لديهم كان موجودا ولكن الإمكانات غير متوافرة، إذ إنهم في حال وصولهم إلى منطقة بيسان سرعان ما نفدت

1) الموسى، ثمانون. ص٤٤٠

2) حبيب الزيودي، كتاب السيرة. جريدة الرأي. ١٤ أب ٢٠٠٦م.

منهم الذخيرة!! نتيجة للحماس الذي أبدوه وهم في الطريق، كانوا يطلقون النار من البنادق في الهواء... [١].

كانت الصورة الحقيقية التي يرجوها ويحلم بها، خروجه من هذا الإطار لينفذ إلى ما وراء ذلك لتحقيق الطموحات والرغبات الداخلية، لكنه أحيانا كان يجد ما يقيد حريته ويحدها فيعاود النظر مرة أخرى ولكن دون جدوى وفائدة من ذلك، بدليل المعاناة والمرارة الملازمة له نتيجة للوضع الاجتماعي القائم آنذاك، ومن تلك الصور المتمثلة في معاناته الشديدة كالبؤس والحرمان من كل شيء، يوم أن اتفق مع ابن عمه منصور على أكل العشب من السهول كي يمرض، من أجل أن يأكل الحلاوة التي كانت تقدم للمريض فقط ، قائلا: "قال لي مرة أن في دكان "سالم" حلاوة. ولكنهم لا يشترونهـا إلا للمرض. لذلك قرر أن يمرض ذلك النهار علهم يشترون له حلاوة. ثم طرح علي طريقة تنفيذه للقرار، قال: نذهب للسهول ونبدأ بأكل كل ما نجده هناك نابتا في الأرض حتى نمرض، أكيد هناك نبتة منها تمرضنا"[٢]. هذه المعاناة في الحصول على الحلاوة التي لم يحصلوا عليها كادت أن تؤدي بهم ما يشبه الانتحار، فقد تمثل لدى الكاتب الحلم بالخلاص من الواقع الاجتماعي الأليم إلى المستقبل المجهول الذي ينتظره، إنه يميز ذلك المجتمع بأمور ثلاثة هي الزواج والموت والولادة: "والناس لم يكونوا يختلفون، ليس لديهم جديد وليس لديهم ما يقولونه مما لا أعرفه مسبقا، فهم مثلي ينطلقون من يوم ليوم لا تتميز حياتهم إلا بالزواج والموت والولادة، هل أنا عبد من نوع ما خلقت لأكون تابعا؟!!"[٣].

1) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١٧١.

2) نفسه، ص٦٢.

3) نفسه، ص١١٩.

هذه الدهشة والاستغراب من الواقع الأليم والظروف الصعبة المحيطة به تجعله مكبلا بكل شيء، لديه طموح وفي أعماقه الكثير للانطلاق نحو الآفاق، لكن في حقيقة نفسه وذاته هناك الكثير الذي ينتظره فيما بعد وقد عبر عن ذلك بقوله: "فـــي الأمسيات عندما كنا نخلو لأنفسنا، أخي وأخواتي، كنت أحدثهم عن قدومي إلى عمان على متن طائرة، أصف لهم من الجو الجموع التي جاءت لاستقبالي، وأغرق في الوصف حتى يخال الكبار، ومنهم أمي، أن ذلك حقيقة، فكانت تجلس وتستمع إلي، فأزداد حماسا وأبالغ في وصف المشاهد"[١]. كل هذه المصاعب التي كانت تواجهه كان يتم التغلب عليها عن طريق الدراسة، قائلا: "كل ما هنالك أنني فعلت أبسط الأشياء. فعلت الشيء الوحيد المتاح لي، أن أدرس وأكثر من الدراسة، لم يكن هناك شيء آخر أقوم به. لم يكن لي خيار، وكان هذا الخيار سهلا، فقد كنت أحفظ بسرعة، وأنجح بتفوق في نهاية الأمر. لذلك كان من الطبيعي أن أعبر تلك المسافة فيما يشبه القدر المحتوم الذي لست أكثر من أداة صغيرة فيه"[٢].

لقد قدم الطويل مجموعة من الصور الحقيقية لذلك المجتمع الذي عاش فيه، مجتمع القرية، صور حياة أهل القرية من تكافل وتعاون ما بين أبنائها، مقدما صورة هذا التعاون والتكافل يوم تم اختياره في بعثة دراسية ولكنه لم يستطع توفير كلفة السفر لإفلاس الأهـــل، إلا أن حلّ هذه الأزمة جاء من مجتمع القرية الذي كان يقدم "عادة النقوط"، فانتهت الأزمة وتم جمع المال له: "وبدأ النقوط جاء كثيرا وكافيا، وصار برهانا آخر لي بأن "الأشياء تتكفل بكل مـــا ينقص بطبيعـــة تفاعلها"[٣]. وتودع الأم ابنهـــا ويومهـــا تمطر السماء مطرا شديدا

1) الطويل، مدارات الذاكرة، ص١٢٠.

2) نفسه، ص١٢٢.

3) نفسه، ص١٨٤.

واستبشر أهل القرية بالخير، "ستبقى الدنيا أمامك خضراء وخلفك خضراء... اذهب على بركة الله"[١]. وتبدأ الانطلاقة الطويلة والشاقة، دروب ومسالك وعرة جدا، عبر عنها الطويل في استحضاره السردي لمرحلة أخرى من مرحلة العمل السياسي التي سنعرج عليها بإيجاز مفصل فيما بعد.

إن الصور التي يقدمهـــا الطويل لذلك المجتمع القروي الذي كان يعيش فيه، هي في الحقيقة تعبر عن القهر والعذاب الاجتماعي لديه، يريد أن يجد صدى لفعله المكتنز في داخله من خلال التفاعل مع الظروف المحيطة به، ومطلبه هو تحقيق غاية، يدعمها أن، "الواقع الاجتماعي يتضمن إذا فعلا وفاعلا وظروفا موضوعية يتم فيها التفاعل. وبهذا فهو يتضمن عناصر ذاتية ترتبط بالفاعل وقصده ومعنى الفعل، وأخرى موضوعية تمثلها الظروف التي يتم فيها التفاعل"[٢]. مجتمع آمن ولكن تنقصه أمور كثيرة حسب وجهة نظره، تجد البساطة والوداعة مقابل الفقر والحرمان من كل شيء، تجد الطبيعة الهادئة التي كان يجد بها ملاذا آمنا له من مطاردة المجتمع. كل هذا ولّد لديه كبتا داخليا مأزوما في أغلب الأوقات. ويستطرد بالحديث بذكر هذه الأزمات المتتالية في سيرته الذاتية، لحمل رسالة إلى الآخر عن مدى التطابق والتعايش ما بين الفرد والمجتمع، في عملية التفاعل وأخذ الآخر بعين الاعتبار في اختياره لفعله.

وفي دراسة الجانب الثقافي والسياسي في سيرة الطويل، نجده في البداية يروي الأحداث والوقائع السياسية فيما كان يسمعه من أخيه محمد، قائلا: "قصص ثوار فلسطين

---

1) المصدر السابق، ص١٨٤.

2) إبراهيم عثمان، **مقدمة في علم الاجتماع**. ١٩٩٩، ص٢٦.

استمر أخي يرويها لنا، بعد أن عاد من حيفا نهائيا، وهي قصص كثيرة مليئة بالبطولات"[1].

ومن ثم ينتقل بالحديث عن بدايته السياسية يوم أن كان طالبا في مدرسة إربد الثانوية، يقول: "هالني أن يوسف الغوانمة يعرف أكثر مما أعرف، على الرغم من أنني قبل سنة واحدة كنت أظن أنني أعرف أكثر منه. لكنني عرفت السر ولم أعد أسأل السؤال إياه. فهو من مدرسة العروبة"[2]. ويذكر مشاهد للطلبة خلال المظاهرات في إربد في ثنايا السيرة، وبعض المشاركين فيها من الذين أصبح لهم دور في الحياة السياسية أو الثقافية في الأردن أمثال: فايز الخصاونة وزياد أبو غنيمة ويوسف غوانمة، الذين جاءوا من مدرسة العروبة وأخذوا يهتفون محتجين على الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في تلك الفترة، وكان دوره في هذه المرحلة مقتصرا على المشاهدة والاستنتاج وتسجيل الأحداث فقط، بدليل قوله: "استنتجت على الفور، ودون كلام كثير، أن أبو الهدى ليس خائنا ولا عميلا؟ بل رئيس وزراء لدولة فقيرة لا تملك شيئًا"[3].

كانت هناك مظاهرات في إربد تنشب بين الحين والآخر، في البداية لم يكن يشارك بها على الرغم من حضوره لها واكتسابه من الخبرات ما يعينه مستقبلا، وكان نتيجة لهذه المشاهدات والأحداث التي كانت تحصل أمامه، تدفعه للمشاركة برغبة ملحة فيها، إلا أنه أخيرا حسم أمره بالانتظام السياسي، وقرر هو وأولاد عمه في المدرسة الانتظام في جماعة الإخوان المسلمين: "ولقد كان الاتجاه الطبيعي أن ننظم جميعا، أنا وأولاد أعمامي في المدرسة، إلى جماعة الأخوان المسلمين"[4] ولكن سرعان ما تشكلت له قناعة بترك الحزب

---

1) الطويل. مدارات الذاكرة. ص٣٥.

2) نفسه، ص١٢٧ .

3) نفسه، ص١٢٩.

4) نفسه، ص١٣٨.

والانتقال إلى حزب البعث، قائلا: "أعلنت أنني لم أعد أخا مسلما فتدافع البعثيون لتنسيبي لحزبهم ففعلت دون تردد"(١).

هذه البدايات تشكلت له في أثناء الدراسة في إربد، وفي هذه المرحلة الحاسمة يتعرف إلى أشخاص جدد، أمثال: أنور بدر العابد، وحسين مجلي، ويحي غرايبة، ومحي الدين المصري، وسعد حجازي، وقد جمعهم حزب البعث، قائلا: "وجدنا أنفسنا رفاقا في حزب البعث منذ أكثر من سنة شذبنا الحزب من كل ما يميز الواحد منا عن الآخرين، وحولنا بطول الصقل والتلميع إلى رماح جاهزة للاستعمال عند الحاجة"(٢). إلا أن الحلم في تحقيق الأفكار والرغبات لهذا الحزب كان يجد معارضة وخاصة من شيوخ العشائر!! ولم يكن ليرى النور نتيجة للإحباط والمعارضة من هنا وهناك، قلق داخلي يطارده وحالة عدم استقرار تنتابه بين الحين والآخر، ومعارضة شعبية تقف في وجه المتغيرات التي يحلم في بلوغها، منتقلا في الحديث إلى مرحلة أخرى، لعل الطموح يتحقق لديه.

كانت البداية في حصوله على بعثة دراسية إلى جامعة دمشق وتعرفه هناك إلى زملاء جدد أغلبهم كان يعرفهم في أثناء الدراسة في إربد ومن الأشخاص الذين التقى بهم هناك: علي محافظة، وجلال عباسي، وعلي سلامة، وعوني الريحاني، بالرغم من شوقه للقاء بقادة الحزب أمثال ميشيل عفلق، وصلاح الدين البيطار، وأكرم الحوراني.

بعد هذه المقدمات، يصف بداية العمل الحزبي والانطلاقة العملية الأولى، إذ كانت في دمشق، يوم أن فكر مجموعة من الرفاق في حزب البعث عبور منطقة الحدود من كلا

---

1) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١٤١.

2) نفسه، ص١٥٦.

الطرفين، ذاكرا الأسباب التي أدت وحفزت لهذا العمل باتخاذ قرار من قيادة الحزب في كلا البلدين وتم تنفيذ هذا الأمر فيما بعد.

وبعد عودته إلى إربد لقضاء العطلة، نجد أن حديثه مقتضب عن الأعمال السياسية وخاصة الحزبية، لكن في حال عودته إلى دمشق يبدأ نشاطه يزداد كثيرا،حيث التدرب على السلاح: "حملتنا السيارات صباح اليوم التالي إلى معسكر صغير نصبت خيمتاه على أرض جرداء ترتفع ببطء باتجاه قاسيون عارية إلا من الحجارة وشجر الشيح والأودية الشتائية. كان ينتظرنا هناك مدربنا، وهو ضابط في الجيش السوري يسمى أكرم"[١]. وفي حال عودته إلى إربد يبدأ بتطبيق العمل المنظم الذي أرسل من أجله، وهو اقتحام سجن إربد من أجل إخراج المساجين البعثيين هناك.

في مجمل ما تقدم، نلحظ سردا للواقع السياسي الذي يقدم به مجموعة من التناقضات السياسية الهامة في تلك الفترة، كان شاهدا عليها ولم يكن ليقتنع بها: وبدت تتضح له الرؤى أكثر من السابق. بهذه الخلاصة يقدم مفادا لمطلب داخلي، يكنه في أعماقه النفسية وذلك بعدم قناعته بهذه الأحزاب التي تستغل الناس بشعاراتهم البراقة، ولم تؤد الدور المناط بها كما يجب.

بعد ما تقدم من أحداث ووقائع كان يقف من أغلبها موقف الضد، ينتقل إلى نابلس ليدرس هناك ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى مهمة في مجريات الأحداث السياسية والثقافية والتي أكمل بها سيرته الذاتية: مرحلة العمل الدبلوماسي، قائلا: "دخلت الخارجية تحدوني آمال كثيرة في الخروج من الضيق المادي وأشياء أخرى أنسبها للعمل في السلك الدبلوماسي. ولم

---

١) الطويل، مدارات الذاكرة، ص٣١٤.

أكن أعرف أنني في ذلك اليوم من حزيران سنة ١٩٦٢م قد دخلت إلى مقتلي مرة واحدة في حياة لا تتكرر مرتين"[١].

وفي الجزء الآخر من سيرته الذاتية[٢]، يكمل المشوار الحافل بالأحداث السياسية والثقافية، وقد قدم الدكتور خالد الكركي لهذا الجزء، قائلا: "فالح الطويل، في هذا الكتاب، حاضر باعتباره السارد وبطل الحكاية، وهو رجل وطني ومثقف وسياسي. ولكل واحدة من هذه حكايتها وأبعادها وتناقضاتها مع غيرها من الاتجاهات، فالوطني لا يتبدل، لأن الوطن روح ورؤية، والمثقف الجذري العضوي لا يتردد ولا يميل مع الهوى، والسياسي في دائرة خاصة تنفصل عن الوطني والثقافي باسم الموضوعية أحيانا، وباسم مصلحة الوطن أحيانا أخرى... "[٣].

بداية السيرة تتحدث عن معاناته وانتقاله من مكان العمل إلى مكان سكنه في حكما، مصورا هذا الوضع باستحضاره لقصة سيزيف، قائلا: "تلك هي قصة سيزيف ذلك الذي حكمت عليه الآلهة أن يرفع صخرة كبيرة إلى قمة جبل حتى إذا أوصلها تدحرجت من جديد"[٤].

وعن تصوير معاناته الحياتية، نلحظ توافقا فيما يقدمه ويستحضره ما بينه وبين الأديبة "فدوى طوقان" في سيرتها الذاتية، رحلة جبلية رحلة صعبة، وذلك بتوظيف أسطورة سيزيف، لديهما: "ومن الأسلوب الأدبي الشفاف قولها في تلخيص قصة كفاحها الذي لم يتراجع أبدا من أجل تحقيق الذات: "حملت الصخرة والتعب، وقمت بدورات الصعود

---

1) الطويل، مدارات الذاكرة. ص٣١٤.

2) الطويل. في الطريق إلى عمان: أوراق سفير. سيرة ذاتية، ٢٠٠٤.

3) نفسه، ص٨.

4) نفسه، ص١٧.

والهبوط، الدورات التي لا نهاية لها"؛ وهي إشارة مكثفة تستدعي أسطورة "سيزيف" كلها..."[١].

بعد هذا انتقل الطويل إلى الحديث عن مرحلة وجوده وعمله سفيرا في الباكستان، وقد استطرد إلى الحديث عن بعض الجوانب السياسية والتاريخية للباكستان، وكذلك في الأماكن المجاورة، مثل أفغانستان، وهذا فعل يمثل في جانب منه تجاوزا لصورة كتابة السيرة.

ومن الأحداث التي يذكر، سفره إلى أفغانستان للتحقيق في حادثة أحد الطلبة الأردنيين، وقد جعل من هذه الحادثة مدخلا للحديث عن طبيعة الحياة في ذلك البلد، قائلا: "عالم مستباح غارق في الفساد والجريمة تتدفق كالطفح حتى عتبات بيوت الأبرياء من سكان ذلك البلد الذي عرفت الكثيرين من أبنائه وأحببتهم..."[٢]. يضمن رسالته في هذا الجانب من فوضى، بإظهار الواقع المعيش في تلك الدول لعالم غريب الأطوار غارق في الفساد والجريمة إلى أبعد الحدود.

ينتقل في حديثه تنقله من مكان إلى مكان، فحين عمل سفيرا في العراق مضى إلى الحديث عن هذا البلد، وعن الأجواء الداخلية فيه وما فيه من صراعات سياسية، وأزمات متتالية. لكنه يتوقف عند بعض القضايا المتعلقة بعمله، مثل محاولة اعتقال أربعة من الطلاب الأردنيين من قبل المخابرات العراقية بتهمة تعاملهم مع المخابرات الأردنية!! ويعمل على الدفاع عنهم، ويلحّ على إخلاء سبيلهم: "جاءوا إلي ليخبروني بأنهم أصبحوا أحرارا"[٣] وبعـــد هـــذا الحدث تتم مقابلة مدير المخابرات العراقي "برزان ابراهيم" على أثر

---

1) نايف العجلوني، السيرة الذاتية لعدوى طوقان: الشخصي والسياسي والأدبي. مؤتة للبحوث والدراسات. ١٩٩٥، ص١٠١.

2) الطويل، أوراق سفير. ص٨٥.

3) نفسه، ص١٣٨.

اعتقال المهندس الأردني الذي كان يعمل في الحدود الأردنية العراقية، ولم تعجبه المقابلة مع مدير المخابرات، قائلا: "ونهضت، متجها نحو الباب، فحاول أن يستبقيني معتذرا، فلم أتوقف لأرد، بل أبعدت اهتمامه واعتذاره بحركة من كفي قذفتها باتجاه الجانب فالخلف، بينما كنت أتمتم بكلمات نصف مسموعة (ما هذا!! أي نوع من الناس هؤلاء!! مدير مخابرات قال!! لم أكن أتصور أنني في حضرة إمبراطور!!"[١]. ولكن سرعان ما عاد المهندس إلى بيته وسرعان ما وصل الخبر إلى الرئيس صدام حسين، وقام بإقصاء برزان من موقعه وتجريده من مصادر القوة التي كان يستخدمها.

إن مثل هذه المواقف التي يرسمها الطويل، لتدل على أن صاحبها كان مدافعا عن أولئك الناس ويقف إلى جانبهم في كافة محنهم.

ومما يرويه في سيرته بعض ما كان يدور بين الساسة: "عدت إلى العراق بتفويض واضح، زرت وزير المياه في مكتبه وطرحت عليه الموضوع رسميا"[٢]. وبعد عودته إلى العراق تتم له الموافقة أثناء زيارة الملك حسين إلى بغداد سنة١٩٧٩م بدأ الرئيس صدام حسين الحديث متوجها لجلالة الملك حسين: "قررنا تقاسم شربة الماء "وياكم" السفير قدم طلبا بذلك ونحن وافقنا في الحال. نحن لا زلنا يابو عبدالله نروي ونفخر بقصة تلك الفتاة العربية في معركة اليرموك الجاءت بقربة ماء تبحث عن أخيها في ساحة المعركة"[٣]. بعد هذا التصريح الهام للرئيس صدام حسين، يشعر الملك بالبهجة والسرور وكذلك الطويل، فإنه لم يتماسك أعصابه، قائلا على لسان الملك حسين: "يشعر المرء هنا أنه أمام نوع مختلف من

1) الطويل،أوراق سفير. ص١٤٨.

2) نفسه، ص١٥٩.

3) نفسه، ص١٦٢.

القيادة لم نتعود عليه من قبل"[1]. ولكن وقوع الحرب العراقية الإيرانية حال دون أن يتم مثل هذا المشروع.

ومثل هذا الحديث يمثل إمعانا في الاستمرار في رسم صورة الذات "المتمكنة" التي تستطيع فعل ما لم يستطيع الآخرين القيام به، وبقطع النظر عن دقة السرد وواقعيته، فإنه يؤثر بصورة واضحة على رؤية الذات "ذاتها" في إطار الصورة شبه النمطية التي نراها في السير الذاتية، "إنها صورة تجسد تجلّي الفريد الذي لا يشبه إلا نفسه"[2].

وفي مكان آخر من السيرة يتحدث عن الحرب العراقية الإيرانية، قائلا: "وعن حالة التصعيد في التوتر بين الجارين"[3]. وهو يعزو سبب تحركات هذه الحرب إلى أمريكا وبريطانيا بالدرجة الأولى: رسالته في هذا الاستذكار لتبيان أن القيادات والحكومات تتصرف ضمن أهواء قوى مهيمنة عليها، قائلا: "ولقد اندلعت الحرب العراقية الإيرانية، باعتبارها الحلقة الأخيرة من حلقات كثيرة في سلسلة طويلة مترابطة، نتيجة لحوادث إقناع فرضت على كل من إيران والعراق حتى تاريخ اندلاع تلك الحرب في أيلول سنة ١٩٨٠م." [4].

ويذهب الطويل إل أن عمله في العراق يمثل تجربة عميقة أثرت في تكوينه، يقول: "ربما سرع العراق بإنضاجي. فقد عشت سنوات أربعا فيه أغلي على نار هادئة تندلع ألسنتها تحت أديم الأرض التي أسير عليها ولا تطفئها مياه دجلة والفرات ولا صقيع الشتاء، أتراوح فيها بين الهدوء والانفعال، والرضا والغضب، والسعادة وخيبة الأمل، والثقة العمياء بالآخرين والشك فيهم، وعدم الاكتراث بما سيحدث والخوف من المجهول وفقدان

---

1) الطويل، أوراق سفير، ص١٦٤.

2) أنظر اليوسفي، ص١٤٩.

3) الطويل، أوراق سفير ص١٩٠.

4) نفسه، ص١٩٨.

المرتكزات، أقفز من حالة لأخرى دون توقف وأثناء كل ذلك أتحسب من شيء ما في عالم لا يعرف أهله الهدوء"(١).

وفي إجابته مضر بدران عن العراق، يقول: "أرض العراق لا تترك في الناس إلا طبعا واحدا دون غيره، فهم إما شجعان حد البطولة وإما جبناء حد الخور؛ إما كرماء وإما بخلاء؛ إما أنهم محبون حد الهيام بما وبمن يحبون، أو حاقدون حد التربص والانتقام؛ إما قوميون رومانسيون، وإما شعوبيون؛ كأن أرض العراق لا تقبل الخلط بين الأشياء، فهي توزع الناس على الطبائع، وليس العكس"(٢). بهذه الصفات المميزة، يختتم حديثه واستحضاره السردي للأجواء العراقية آنذاك، الذي ينم على اطلاع واسع وعلى خبرة وثقافة. فوصفه لطبيعة أسواق العراقيين يلتقي بمعظم عناصر الصورة التاريخية المعروفة عنهم أو الصورة السائدة في كثير من الكتابات الأدبية الثقافية.

وفي نقلة أخرى تأخذ سيرة الطويل القارئ إلى روسيا، حيث يقدم لدخوله هذه التجربة الجديدة بعنوان مستمد من العمق الثقافي الروسي، فالبداية يجب، ربما، أن تكون مع "ديستويفسكي"(٣). ويمضي بعد هذا الحديث عن علاقة السوفيت باليهود وما كانوا يقدمونه من رعاية وعناية فائقة لهم، قائلا: "ثم إن السوفيت كانوا ثاني دولة تعترف بإسرائيل سنة ١٩٤٨ وتمدها بالمتطوعين والسلاح من روسيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا"(٤)، موضحا أن أغلب أصحاب القرار السوفيتي كانوا يهودا.

---

1) الطويل. أوراق سفير. ص٢٣٥.

2) نفسه، ص٢٣٦.

3) الرواية هي: "توقعات من باطن الأرض" ترجمة منير البعلبكي. أنظر الطويل، أوراق سفير. ص٢٤١.

4) الطويل،أوراق سفير. ص٢٥٢-٢٥٣.

في نهاية هذا الجزء الكبير من سيرته الذاتية والمختصة بالجانب الثقافي والسياسي، يختم بمجموعة من التساؤلات المعبرة في هذه الحياة: "فالحياة التي نقودها تدور حول أحداث تتكرر دون هوادة، كحاجتنا لتناول الطعام ثلاث مرات في اليوم، وللنوم وللحركة في نطاق ضيق من المعارف لا يتوسع إلا نادرا"(١)، مشبها ذلك بالعمل الدبلوماسي: "وفي العمل الدبلوماسي مثل هذا التكرار الذي لا ينتهي. وهو واحد مع جميع الناس. لذلك لم أتوقف إلا عند غير المتكرر وما اعتبرته غير عادي فسجلته في هذه الرواية"(٢).

بهذا السفر الحافل والتنوع السردي يكون الطويل، قد أنبأ عن مجموعة من الرؤى والجوانب الهامة في كتابة السيرة الذاتية، بذكره لأهم الوقائع والأحداث العامة والخاصة على كافة الأصعدة، ليقدم للأجيال دروسا وعبرا تفيد منها في مجاراة الواقع المعيش، إذ "تصعد السيرة الذاتية إلى التوثيق الكتابي، معلنة أن الكاتب قد بلغ شيخوخته، أو أن لديه ميزة يود إيصالها إلى الآخرين، معتقدا أن لديه ما يقوله، وأن حياته الطويلة، زودته بتجربة مليئة بالمواعظ والدروس، قد تنفع البشر"(٣).

حديثه عن تلك الدول التي كانت تشكل محورا هاما في المنطقة، ويحسب لها في العلاقات الدولية حساب من نوع خاص مميز؛ وذكره لرؤسائها كذلك وممثليها الدبلوماسيين في تلك الفترة، تعبر عن حنكة سياسية ووعي ثقافي هام لديه، في العلاقة المميزة التي كان يقيمها آنذاك، وهذا يعيدنا إلى بداياته الأولى من سيرته الذاتية وما تنبأ به لهذه الأيام الحافلة،

---

1) المصدر السابق، ص٣٨٣.

2) نفسه، ص٣٨٢.

3) فيصل الدراج، السيرة الذاتية وملامح الأقدار الفلسطينية. جريدة الدستور، ٢١ تموز ٢٠٠٦.

تجعله لأن يكون محط إعجاب الجميع به سابقا ولاحقا. ولعل هذا تجسيد لصورة "الذات" كما تتجلى في السير، ذات تتمتع بالقوة، والكفاءة، والتفوق... [١].

وفي سيرة المجالي، "**رحلة العمر**"، نجد أن حديثه عن الواقع الاجتماعي المعيش، جاء مقتضبا ومختصرا للعادات والتقاليد القائمة آنذاك، مستذكرا زواج والده للمرة الثانية؛ وإكرام الضيف وعن طبيعة العلاقات الأسرية، التي كانت تقوم على المودة والاحترام المتبادل ضمن أجواء عائلية مترابطة. واصفا الحياة الاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك: على الرغم من قسوة العيش وضيق ذات اليد، إلا أنها لا تخلو من البساطة والحلاوة، قائلا: "كانت الحياة أكثر بساطة مليئة بالهناءة والعلاقات الإنسانية الطيبة، ينعشها الصفاء والمودة"[٢].

يتمحور حديثه عن العلاقة الأسرية ما بينه وبين إخوانه، بتميزها برابط المودة والاحترام المتبادل والتعاون على العمل وجني المحصول، كل سيدة في المنزل كانت توكل لها مهمة خاصة تقوم بها.

وعن العادات والتقاليد القائمة آنذاك لإكرام الضيف، يقول: "وكان لدخول الضيف إلى مضارب البدو في بيوت الشعر تقاليد صارمة جدا، لم يكن يسمح لأحد بخرقها أو تجاوزها"[٣]. واصفا هذه العادات والتقاليد بأنها حلوة تبعث على المحبة والاحترام والنخوة والغيرة على سمعة العشيرة، وأبنائها.

---

1) أنظر اليوسفي، ص١٥٧ـ١٥٨.

2) المجالي، رحلة العمر. ص٢٥.

3) نفسه، ص٢٩.

بهذه المرتكزات المختصرة للواقع الاجتماعي، يكون قد صور لنا الواقع المعيش في ثنايا سيرته الذاتية المغايرة للسير السابقة، التي كانت تقف على المحيط الشامل لواقع الظروف الاجتماعية، الأكثر تعقيدا ومعاناة في سبيل العيش الكريم، قولا وفعلا.

من هنا، فإن العمق الدلالي الذي تكشف لنا في دراسة الجانب الاجتماعي في سيرة المجالي، يوحي بإظهار جانب الرفاهية في العيش، وأنه لم يكن يعاني كما عانى أصحاب السير السابقة من الفقر والعوز وشح الموارد العائلية، على الرغم من ذكره بأن الحياة لا تخلو من المنغصات، إلا أنه لم يعش تلك الظروف الاجتماعية القاسية التي مر بها الجميع، حسب ما ورد لديه.

أما فيما يخص بدايته الثقافية والسياسية، فقد بدأت الانطلاقة من دمشق، قائلا "كان الذهاب إلى دمشق هو العبور بداية الحلم، وكانت تراودني خواطر بأن أتجه إلى الجامعة الأمريكية في بيروت، لكن هذه الخواطر لم تعش طويلا، فالقرار جاء متأخرا"(١)، في هذه البداية يفاجأ ويجد نفسه بعثيا: "ووجدت نفسي ذات مرة متأثرا بحلاوة خطاب لميشيل عفلق، بمناسبة المولد النبوي، فصرت واحدا من الطلبة البعثيين في الجامعة"(٢). وينتظم في صفوف العمل لدى حزب البعث، مستحضرا صورة هامة رسخت في ذهنه، حينما زحف آلاف المواطنين إلى مبنى رئاسة الوزراء مطالبين الحكومة السورية بفتح باب التطوع للجهاد ضد الفرنسيين، مما اضطره للذهاب للتدريب إلى القلعة في دمشق، قائلا: "وبعد ذلك اندلعت

1) المجالي، رحلة العمر، ص٥٢.

2) نفسه، ص٥٨.

الحرب. وعلا صوت المدفعية الفرنسية التي دكت دمشق، وسقط شهداء، ودخل الإنكليز للتهدئة، وكل ذلك من الذكريات التي لا يمكن أن تنسى"[١].

وعن تعلقه بحزب البعث، يقول: سحرني عفلق. يوم كان خطيبا في مناسبة المولد النبوي الشريف، وسبب الاندهاش أن عفلق كان مسيحيا، إلا أن كلامه أثر فيَّ كثيرا، ويقول: "ميشيل عفلق كان أحد الخطباء. واعترتني الدهشة. ترى؟ ماذا سيقول مسيحي في عيد المولد النبوي؟ وجلست أنتظر حتى يأتي دوره. ولما بدأ حديثه أدهشني؛ وبعد مرور كل هذه السنين لم أسمع أجمل من كلام عفلق عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم"[٢]، وبعد هذا التأثر يتم اللقاء والانضمام إلى صفوف الحزب: "ووجدت نفسي منخرطا في حزب البعث"[٣]. تعرف إلى شخصيات جديدة وهامة في حزب البعث، أمثال: صلاح البيطار وعلي جلال السيد، وتبدأ المشاركة في تنظيم الإضراب الشهير المعروف بإضراب الخبز أو "إضراب خبز الوثيقة".

وفي مواطن متعددة من سيرته، يحدثنا المجالي عن وقائع وشخصيات ومواقف سياسية ذات دلالات مرتبطة بشخصه، قائلا: "في سنة ١٩٥٠م، كنت طبيب كتيبة الحرس الملكي، وقائدها آنذاك حابس المجالي، وكنت في زيارة للقصر، وكان هزاع هناك أيضا، وفجأة جاء جلالة الملك إلى خيمته المنصوبة في الحديقة، وأسرعت لتقبيل يد جلالته، فقال له هزاع: الدكتور عبد السلام يا سيدي. فتساءل (رحمه الله) مستنكرا: دكتور، دكتور، مجالي ودكتور؟!!. أحسب أن الدنيا تغيرت"[٤].

---

1) المجالي، رحلة العمر ص٦١.

2). نفسه، ص٦٣.

3) نفسه، ص٦٤.

4) نفسه، ص٥٥.

ومن ثم يقف موقفا مغايرا لموقف الطلبة الذين نددوا بزيارة "الأمير عبدالله" إلى تركيا، قائلا: "قام الأمير عبدالله بزيارة إلى تركيا، فبادر الطلاب الأردنيون من كافة الأحزاب بالتنديد بتلك الزيارة وعبّروا عن استنكارهم... وقاموا بإعداد برقية تشجب تلك الزيارة، مهروها بتوقيعاتهم، ولما عرضت عليّ رفضت توقيعها على الرغم من أنني عضو في حزب البعث.."(١). ويقدم رؤيته للأحداث المتعلقة بالقضية الفلسطينية، ويشير كذلك إلى موقعه وعمله في الدولة الأردنية.

بعد هذا السرد لواقع الحياة السياسية في الأردن والمنطقة العربية بشكل عام، يحدثنا عن الواقع التعليمي والثقافي، إذ قدم من الأفكار والرؤى لتقدم العملية التعليمية، منذ تسلمه رئاسة الجامعة الأردنية في ١٨ آب ١٩٧١م إذ لاقى هذا التعيين عدم رضا من قبل أعضاء الهيئة التدريسية، قائلا: "لأسباب تتعلق بالظروف السياسية التي يعيشها الأردن، ولأسباب تتعلق بشخصي لأني مجالي وعسكري وطبيب ووزير، وهذه كلها من خارج المؤسسة التعليمية"(٢)، إلا أنه سرعان ما عمل على إزالة الغمامة، بمد أواصر الترابط والتعاون ما بينه وبين أعضاء هيئة التدريس، وتقديم العون والمساعدة لهم والتعرف على احتياجاتهم.

بعد هذا الاستحضار ينتقل إلى الحديث عن وزارة التربية والتعليم، وأن تركيزه كان على تطوير العملية التربوية ضمن منهجية معينة، إذ إن صلب العملية التربوية يتمحور في أمور ثلاثة: (المنهج والمعلم والطالب).

---

1) المجالي، رحلة العمر، ص٧٣.

2) نفسه، ص١٧٣.

ويتحدث عن ترشيحه عضوا في مجلس جامعة الأمم المتحدة، التي تجسد معلما ثقافيا بارزا ــ كما يصفها ــ تلتقي فيه الأفكار والرؤى مع بعضها بعضا، "واقترحت لهذه المؤسسة فلسفة وضعناها في عنوان جذاب هو: "اعرض .. ولا تفرض"، وواضح أن الغرض من هذا العنوان هو الحوار السلمي الحضاري الداعي إلى تفاعل الحضارات والأمم"(١).

والأمر البين أن هذا العرض لما قام به الرجل في المجالات التي عمل فيها، يمثل تصويرا نمطيا لما تقوم به الذات الساردة من أعمال فائقة لا يتوقف أثرها على شخص صاحب سيرة، بل يمتد تأثيره إلى المجتمع والحياة في مناحيها كافة، الثقافية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية. إن الذات هنا تنطلق من الموقع أو المواقع التي كانت فيها، والتي شكلت جزءا مهما من البنية "الفردية" ورؤيتها لذاتها ودورها. وإذا كانت هذه المواقع في سيرة المجالي سياسية ثقافية قيادية وفي سير أخرى إبداعية، أو علمية، أو عسكرية. أو غيرها، لكنها تلتقي كلها في بؤرة الذات التي تمعن في رؤية تفوقها وقدراتها التي تنتصر على كل العقبات التي تواجهها.

ويمكن للمرء أن يتابع سلسلة المواقع والأعمال والانجازات التي قام بها المجالي في المجالات المختلفة في حقول: الطب، والثقافة، والسياسة، والسلام، والعلاقات الاجتماعية... ليظهر مدى "التفرد" الذي تتميز به هذه الشخصية، وقدرتها غير العادية على العمل، وجرأتها في الإقدام على الصعب وترويضه، "تطفح هذه النصوص أيضا بما يدل صراحة على أنها إنما جاءت لترسم انتصارات الكاتب وتخلد ذكره..."(٢).

---

1) المجالي، رحلة العمر. ص١٩٢.

2) أنظر اليوسفي، ص١٥٠.

وفي دراستنا لسيرة وهدان عويس "**العودة إلى الهدأة**"، نجد أن لديه تصويرا آخر، يتعدى ما هو شخصي خاص به، ليمثل المحيط الاجتماعي والسياسي والاقتصادي الذي عاشـــه وفق شروطه في العلاقة ما بين الفرد من جهة والمجتمع من جهة أخرى، وفي إقامة علاقات تبادلية حيوية، وفي بناء الحياة وتنمية الطموح لديه، وتأدية الدور الخاص به على أساس متين نحو التقدم والازدهار فيما بعد: "وما السيرة في الواقع إلا إعادة إخراج أو إبراز ما تجمع في عقل المؤرخ أو كاتب السيرة من مواد لا حياة فيها، عن طريق الكلمات في إطار أدبي أو شبه علمي وتاريخي"[1].

بدأ وهدان عويس رحلته الطويلة منذ العام ١٩٣١م وهي سيرة حفلت بالكثير من "الصعود والنزول" وهو ينقل لنا صورا من ذلك المحيط الذي عاشه خلال السبعين عاما وبدأه في قرية "دبين" قائلا: "هذه قصة حياتي... أطلعهم فيها على مجريات رحلة قمت بها، ودرب وعر المسالك متعدد المنعطفات صعودا ونزولا سرت فيه. مسيرا أحيانا ومخيرا أحيانا أخرى، مسلسل حافل بالصور والمشاهد، تحكي عن تطورات اجتماعية واقتصادية وسياسية ومعرفية عاصرتها"[2].

في بداية هذه المرحلة للواقع الحياتي، يرسم طبيعة الحياة المعيشة في بساطتها داخل حدود القرية والاعتماد على الذات في عملية المنتجات الحيوانية والزراعية، وكان أكل اللحم موسميا أو في المناسبات والصحن المفضل المعتاد هو المنسف، أما الحلويات فكانت أغلبها من نتاج العنب كالدبس والمعقود"[3].

---

1) إدل، **فن السيرة الأدبية**. ترجمة، صدقي حطاب. ١٩٧٣، ص٢٢.

2) عويس، **سيرته الذاتية**. ص١٣.

3) نفسه، ص٣٦.

ويقدم لنا سردا لطبيعة الحياة الاجتماعية التي يعجب بها وبانتظامها من حيث تقسيم أدوار العمل: من حراثة الأرض وزراعتها؛ وطبيعة الأعراس في القرية كانت تتسم بالبساطة والتواضع، وكانت أغلبها تتم في فصل الصيف بعد جمع الغلال؛ منتقلا إلى الحدث الآخر، وهو الأعياد المسيحية وكيفيتها.

ثم ينتقل إلى مكان آخر في أثناء دراسته الابتدائية في مدينة جرش، متحدثا عن كيفية الانتقال من القرية إلى المدينة "جرش" لتأمين حاجاتهم، واصفا هذا الانتقال برحلة ممتعة ومثيرة(١).

باستحضاره لما تقدم من الصور الاجتماعية في سرده الذاتي، نلحظ توافقا وأوجه شبه في مجموعة من الصور بينه وبين فالح الطويل: فكلاهما كان متفوقا في دراسته، وهما أبناء ريف غادرا القرية إلى المدينة وانتميا إلى حزب البعث، درس الطويل في دمشق في حين درس عويس في بغداد، وتخلى كلاهما عن الحزب، ولكنهما لم يتخليا عن طموحهما القومي والحلم بوحدة الأمة"(٢).

ومن أوجه الشبه القريبة جدا في سيرتيهما: "شكل دخول الراديو إلى "جرش" حدثا هاما مثيرا للدهشة والانبهار لدى الناس... إذ نهض أحد الحضور، وصعد، إلى المنصة، وأخذ يتفقد الراديو من الخلف عله يكتشف خدعة، ظنا منه أن شخصا خلف الجهاز هو الذي يتكلم"(٣).

وفي مرحلة أخرى في أثناء دراسته الثانوية في "إربد"؛ إذ شكلت له هذه النقلة شعورا

---

1) المصدر السابق، ص٤١.

2) للمزيد أنظر، خليل الشيخ، السيرة والمتخيل. ص٢٧٣ــ ٢٧٥.

3) عويس، سيرته الذاتية. ص٤٦.

من السعادة في الاستقلال وازدياد النمو المعرفي، معبرا عن سعادته في سكنه الجديد المشترك، بالقول: "كانت المعيشة في "إربد" أكثر طراوة منها في "جرش"، لكون إربد من أكبر مدن الشمال وتعتبر مدينة متقدمة إذا ما قيست بجرش"[١]. وبهذا يكون التغير والتحسن في الواقع المعيش، قد بدأ يتغير نحو الأفضل مقارنة بالماضي، بدليل قوله: "بأنه لأول مرة ينام فيها على سرير"!!

بهذا النص يختتم الحديث عن الواقع الاجتماعي الذي عاشه في "دبين" و "جرش" و "إربد"، وقد قدم فيها صورة ذلك المجتمع البدائي البسيط في كل شيء، لينطلق فيما بعد إلى الجانب العملي والسياسي بشكل أوسع وأشمل وأدق تفصيلا، نتيجة لوضوح الرؤيا لديه وهذا ما سوف نلمسه في جزء آخر ومهم من سيرته، في دراسة الواقع الثقافي والسياسي الذي يجعله في قسمين: الوصف العام للأحداث والمشاهد، التي حدثت منذ الحرب العالمية الأولى حتى وقتنا الحاضر؛ والأحداث والوقائع الشخصية، المتعلقة به والتي تهمنا أكثر في موضوع السيرة الذاتية. فعلى الصعيد العام للأحداث، يقول: "ففي المجال السياسي اندلعت خلال هذا القرن حربان عالميتان مدمرتان ذهب ضحيتهما ملايين البشر، وقامت على إثرهما دول جديدة واندثرت أخرى، وتبدلت الخريطة السياسية في مناطق مختلفة من العالم"[٢]. في هذا الاستذكار الهام لتلك الأحداث[٣]، يحاول رسم ملامح للأحداث التي يرى أنها ذات تأثير في مسيرة حياته وحياة مجتمعه، معتمدا بصورة أساسية على المادة المعرفية لديه.

---

1) عويس، سيرته الذاتية. ص٥١.

2) نفسه، ص٥٦ .

3) نفسه، ص١٥ـــ ٢٠.

وفي مجمل ما ذكره للأحداث والوقائع الهامة، يذكر بأنّ الحدث الإيجابي الوحيد في النصف الثاني من القرن العشرين، هو وحدة شطري اليمن عام ١٩٩٤م. "لقد انتهى القرن العشرون والعرب في أدنى مستويات التراجع والانكسار القومي، وأخذنا نشهد عودة إلى التقوقع القطري والإقليمي والطائفي، وأصبح هدف حكامهم الحفاظ على مراكزهم وتعزيز الحكم الفردي في أقطارهم، فانتشر الفساد وارتفع شأن المفسدين"[١].

وجود هذه الأجواء والبداية الجامعية في العراق إلا أنه ترك العراق من دون أن ينتمي لأي حزب كان. بالرغم من إعجابه بالشيوعية نتيجة لمسلكهم، إلا إنه لم ينتظم في حزبهم بالرغم من استمالتهم له، لأن تربيته الدينية لا تسمح له بذلك.

أما القسم الآخر من الواقع السياسي والثقافي، يقول فيه: ذكرت سابقا أنني أكملت دراستي الثانوية ولم يكن لدي أي توجه سياسي أو حزبي"[٢]. وإن ما ذكره سابقا من مفاهيم عامة كانت مشتركة لدى الجميع، يقول: "كانت هذه مفاهيمي السياسية في تلك المرحلة من حياتي، وهي مفاهيم عامة يشترك معي فيها جميع أبناء جيلي من الأردنيين"[٣]، وإن تلك الأحزاب السابقة قد أعطته "جرعة من الوعي والاندفاع وفتح عيني على أمور لم أكن أدركها"[٤]

بهذه المقدمات لتلك الأحداث الهامة التي أعطته أبعادا ثقافية واتجاهات سياسية، لتزيد من عزيمته في التقدم نحو الأمام وتزداد الرؤية الشمولية لديه، لذلك جاء حديثه عن الواقع الثقافي في ثنايا النصوص عاما، ولم يقتصر على جزئية معينة، تجد له في كل موضوع

1) عويس، سيرته الذاتية. ص١٨-١٩.

2) نفسه، ص٧٨.

3) نفسه، ص٧٩.

4) نفسه، ص٨١.

يطرحه تنوعا ثقافيا معينا في جلب المعلومة التاريخية الهامة ووضعها في السياق، ومبينا في ذلك ثقافته الحزبية الخاصة به، مبينا الأسباب التي أوصلت الأمة إلى هذا الحال المهين من التردي. ونتيجة لهذا المخزون الثقافي تجده يقدم حلولا لخروج الأمة والنهوض بها إلى مصاف الدول الأخرى، إذ لا بد من تحرير العقل من القيود الصارمة التي كبلته طوال هذه الفترة، موضحا ذلك في أحد مؤلفاته[1]، بأن نهضة الفكر العربي من أزمته، يستدعي وقفة عقلانية متمثلة بمراجعة تاريخ الأمة، وكشف ما طاله من تشويه وطمس للحقائق، ومراجعة نقدية للنهج السياسي الذي سار عليه الحكام عبر العصور، بداية بظهور الإسلام وانتهاء بعصرنا الحاضر.

وعودة إلى بدايته العملية الجادة للانتظام في صفوف الحزب، فكانت في مطلع عام ١٩٥٥م جاء إلى مكتبه في وزارة الأشغال "نعيم الخفش" وتحدث مع عويس بشأن انضمامه إلى حزب البعث: "ولم يمض أسبوع حتى تقدمت عن طريقه بطلب انتساب نال الموافقة من قيادة الحزب فورا. وهكذا أصبحت عضوا في حزب "البعث الاشتراكي"، دون إعلان أو دعاية ولم يكن يعلم بذلك سوى "عبدالله الريماوي" و"نعيم الخفش" وبعض القياديين"[٢]. يبدأ النشاط الحزبي لديه بعد حل الأحزاب في عام ١٩٥٧م؛ إذ لجأ نعيم الخفش إلى سوريا وتولى عويس مهمة الاتصال في الضفة الشرقية، ووردت في إحدى الأيام كمية من المتفجرات من سوريا إلى أحد الحزبيين من إربد، قـــام عويس بإخفائها تحت مقعـــد السيارة

---

1) للمزيد أنظر وهدان عويس، نهضة الفكر في الغرب وأزمة الفكر عند العرب، ف٤، ٢٠٠٦.

2) عويس، سيرته الذاتية. ص٨٠ـ٨١ .

ومن ثم تسليمها إلى أحد الحزبيين وهو حاكم الفايز[١].

بعد هذه الأحداث المنحصرة داخل الأردن يتم اعتقاله وتبدأ المعاناة، حتى يستقر به الأمر في السجن العسكري بالزرقاء، وقد تحدث عن ظروف الاعتقال والمعاناة في السجن وامتعاضه من بعض الرفاق في الحزب؛ لذلك قرر ترك الحزب والتفرغ للعمل النقابي والخدمة العامة وخوض الانتخابات لنقابة المهندسين، ويفوز بمنصب أمين سر النقابة، ثم يقرر الخطوبة في العشرين من شهر آب ١٩٦٢م، ومن ثم يستأنف العمل مع أمانة العاصمة، وبعد هذا يتم زواجه ويباشر العمل الجديد مع دار الهندسة، متحدثا عن الدوافع التي دفعته للعمل مع دار الهندسة، بالقول: "تتعدى النفع المادي إلى السعي لرفع المستوى الهندسي الاستشاري في العالم العربي، ليصبح بمستوى الشركات العالمي"[٢]. وبعد أن تم له ذلك ينطلق في الجانب العملي إلى اليمن، متحدثا عن الوقائع والأحداث العامة هناك والتي تعرضت حياته في أكثر من موقف للخطر من قبل الثوار في اليمن الجنوبي.

وفي جزء هام من سيرته الذاتية، يحدثنا عن مجموعة من النوادر والغرائب...[٣]. التي حدثت معه في بلدان عربية وإفريقية: مصورا حالة التخلف الطريفة، في أكثر من بلد عربي موجودة في ثنايا السيرة، تنم عن التخلف وتعتبر من المسببات الرئيسية لتخلف الأمة وتأخرها.

---

1) أنظر عويس، سيرته الذاتية، ص٨٤ .

2) نفسه، ص١٤٠.

3) نفسه، ص١٦٦، ١٧٠، ١٧٨.

بعد هذه الجولات العملية والحزبية لأكثر من بلد، يعود إلى العراق ويصف الحال الذي يعيشه العراق وما آل إليه من إجهاض المقومات وتدمير لمنجزاته بعد الحرب العراقية الإيرانية ودخوله إلى الكويت.

وفي العودة ثانية إلى الماضي، من أجل تقويمه للمسيرة الحزبية والسياسية وفيها يقدم خلاصة تجربته ورأيه فيما حدث ويحدث على الساحة العربية اجتماعيا وسياسيا، إذ إن الواقع السابق الذي عاشه مع والديه بمرارة وتجلد وصبر، والذي لم يكن مقتنعا به ورافضا له، قد حفزه على طلب العلم بشغف، ليتمكن مستقبلا من الحصول على وظيفة أو عمل يساعده على رفع المعاناة وتحسين مستوى المعيشة لأسرته، مقررا الخروج من القرية إلى المدينة. كان يرى ويتحسس الفروق الطبقية بين أهل الريف وأهل المدينة، وكان يتألم لذلك كثيرا مما ولد لديه نقمة على الوضع القائم وشعورا داخليا في ضرورة إحداث التغيير. ومع تطور المفاهيم الاجتماعية والسياسية لديه ووضوح الرؤية للأوضاع السائدة، فما كان يظنه في السابق طبيعيا ومقبولا أصبح في نظره شاذا ومرفوضا، قائلا: "وفي مرحلة الدراسة الجامعية لاحت لي في الأفق بوادر نهضة فكرية اجتماعية، تبشر بإمكان التغيير الذي كنت أنشده. فأقبلت على التعرف على الأفكار الجديدة المطروحة في الساحة، وبعد التفكير والمقارنة بين هذه الأفكار وجدت ضالتي في أفكار "حزب البعث العربي الاشتراكي"[(١)].

وفي نهاية السيرة، يقدم توصيات وإشارات أدت إلى الضعف والوهن في جسم الأمة منذ الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين في عام ١٩٤٨م، وما تبعه من أحداث وانقلابات ومواجهات داخلية، أسفرت عن التجزئة والفرقة للأمة العربية، وبعدها تعثرت المسيرة التي

---

1) للمزيد حول ذات الموضوع، أنظر سيرته الذاتية. ص٢٢٨.

كانت نواتها سوريا، ممثلة بحزب البعث ومصر بممثلة بقيادتها لإنشاء "الجمهورية العربية المتحدة"، ولكن سرعان ما دب الخلاف بين القيادتين وفشل مشروع الدولة المتحدة.

أما قضية فلسطين، فنجده يتحدث عنها بذكر الأحداث منذ عام ١٨٩٧م حتى وقتنا الحاضر... ويربط بين ما يحدث في فلسطين وما يحدث في العراق[١].

وخلاصة القول فيما يسميه، خشبة الخلاص: يتحدث عن العوامل الخارجية والداخلية التي أوصلت الأمة العربية إلى هذه الحالة من التردي، وللخروج من هذا الواقع لا بد من "ثورة فكرية مماثلة تنزع الغشاوة من عيون الناس، وتفك القيد عن عقولهم وتحررهم من الخوف"[٢].

يقدم هذه الأفكار الهامة والثورية في نفس الوقت، للخلاص من الوضع المتردي الذي نعيشه اليوم، والسبب في هذا وذاك كما يعلله: "فإرادة الحكام مرهونة لنفوذ الدول الأجنبية وإرادة الأفراد مرهونة للحكام، ولا خلاص إلا بتحرير الإرادتين، وهذا ما يجب على جيل الأبناء أن يناضل من أجله"[٣].

أما الرسالة التي يود إيصالها في ملحق من السيرة الذاتية لديه، تحت عنوان محاضرة "الوعد وأرض الميعاد في الكتاب المقدس" فيوضح بأن الديانة المسيحية مثلها مثل الإسلام، ديانة سماوية غير عنصرية، أساسها الإيمان بالله الواحد، ومبينا أن أرض الميعاد المزعومة من قبل الحركة الصهيونية مزيفة وغير حقيقية "وأن الدوافع السياسية للدول الغربية وركوبها الموجة الصهيونية بهدف العودة إلى استعمار المنطقة واستغلال ثرواتها"[٤].

---

1) عويس، سيرته الذاتية، ص٢٣٥ .

2). نفسه، ص٢٤٥.

3) نفسه، ص٢٤٦.

4) نفسه، ص٢٥١.

جميع هذه المحاور التي يقدمها، تعدّ هامة في كتابة السيرة الذاتية، تفيد الأجيال للتغيير المنشود، ضمن حرية سياسية تعطى للفرد من قبل السلطة، "ذلك أنه يستحيل أن يتحقق ازدهار لحياة عقلية حقيقية من دون توافر الحرية السياسية في أبسط صورها، إذ ما جدوى التفكير نفسه في ظل سيطرة مسلمات محددة سلفا؟ وما جدوى العمل الإبداعي في ظل أنماط جاهزة من الفكر والتفكير السياسي والتنفيذي؟ وفي ظل محددات واضحة المعالم لسلطة الحكم والنفوذ؟"(١).

وفي تتبعنا للواقع الاجتماعي في سيرة رجا سمرين "أوراق الشتات" نلحظ أن الجو العام في عملية الاستحضار ــ كما أسلفنا سابقا ــ جاء مقتصرا على الأحداث التاريخية العامة المتمثلة في الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين، لكن هذا لا ينفي الفنية الأخرى للصور الاجتماعية المتمثلة في الواقع الحياتي للعلاقة ما بينها وبين الآخر، مستهلا حديثه فيما كان يروى له من والده، عن الأردن إبان التأسيس، بعد أن تركها العثمانيون وورثها الإنجليز، مصورا حالة الصراع بين البدو والفلاحين في ظل الحكومات الهزيلة التي قامت في شرق الأردن، قائلا "الحياة آنذاك في شرق الأردن يا ولدي كانت لعنة من اللعنات، إذ لم يكن في استطاعة الضعيف أن يعيش، ولكي يتمكن الإنسان في تلك الأيام من الاستمرار في البقاء، فقد كان لا بد له من أن يكون قادرا على الدفاع عن نفسه، وعدم السماح لأحد بالاعتداء عليه"(٢).

ولم نلحظ لدى سمرين تركيزا واضحا ومفصلا للواقع الحياتي المعيش والسبب في ذلك، تنقله وارتحاله الدائم من بلد إلى آخر؛ إذ جاء الحديث مخصصا عن بلدة "قالونيا" وفي

---

1) محمد الجوادي، تكوين العقل العربي، مذكرات المفكرين والتربويين. ٢٠٠٣، ص٢٨.

2) سمرين، أوراق الشتات، ص٩٧.

الدفاع عنها ودحض العدوان الإسرائيلي ومقاومته بالرغم من بساطة العيش وبدائيته في القرية آنذاك. وفي لبنان يتحدث عن الإقامة مع والده بمرافقة الحسيني، ومن ثم الانتقال معا إلى مصر ناقلا لنا صورة اجتماعية في شبه علاقة ما بينه وبين فتاة تعلق بها وأحبها في أثناء إقامته في مصر، قائلاً: "توثقت العلاقة بين أسرتينا وأسرة السيد مصطفى موسى، صرنا نقضي معاً كثيراً من السهرات إما في شقتنا أو في شقتهم. وبدأت فوزية التي كانت محبة للقراءة تتبادل معي بعض الكتب. وبدأت العلاقة بيني وبينها تأخذ منحى آخر"(١). ولكن هذه العلاقة لم يكتب لها النجاح، وفي هذا السياق يتحدث عن علاقة أخرى عن المصادفة التي جمعته بسيدة: "ما هذا الذي حدث...؟ كيف تسيطر على تفكيري صورة فتاة عابرة قابلتها مصادفة في الطريق إلى هذا الحد؟!"(٢). والبهجة لهذا الارتباط بسيدة وعلى الفور "أرسل برسالة لوالده، يعلمه عن هذا الخبر، إلا أن الأهل كان لهم وجهة نظر مختلفة من هذا الزواج"(٣).

وفي دراسة الجانب السياسي والثقافي، يستذكر الوقائع والأحداث منذ ثورة فلسطين الأولى عام ١٩٣٦م، وحتى إعلان قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨م وبعد أن تم فصله من العمل مع المفتي بطريقة كيدية بقي عاما كاملا عاطلا عن العمل، انصرف إلى المطالعة المنتظمة في فرع دار الكتب بضاحية الزيتون، قائلا: "أضفت إلى مخزوني الثقافي رصيدا لم أكن أحلم بإضافته في عشرة أعوام، فقد قرأت في هذه المكتبة أهم كتب التراث وأروع ما أبدعته أقلام المعاصرين من رجال النهضة الأدبية والمفكرين الذين ذاع صيتهم في النصف

1) سمرين، أوراق الشتات، ص١٧٣.

2) نفسه، ص١٩٧.

3) نفسه، ص٢٠٥.

الأول من القرن العشرين"[1] قرأ كثيرا خلال هذه الفترة معظم مؤلفات طه حسين والعقاد وأحمد أمين والرافعي والمنفلوطي، وما ترجم عن الآداب الأوروبية بالحماسة نفسها التي أقبل بها على قراءة الآداب العربية، أمثال فيكتور هوجو والبيركامي وجان بول سارتر وبرناردشو.... ويضيف قائلا: "وعلى الرغم من أنني أضفت إلى رصيدي الثقافي الذي اكتسبته خلال هذه الفترة كثيرا من ألوان الثقافة والأدب، عبر السنوات التي أمضيتها في الجامعة دارسا وباحثا من أجل الحصول على أرفع الدرجات العلمية، إلا أنني سأظل مدينا فـــي ثقافتي إلى هذه الفترة القصيرة الحافلة بالنشاط من حياتي"[2].

يقدم اعترافه، أن بداية العمل السياسي كانت في عام ١٩٥١م. إذ إنه يسجل موقفا ورأيا صريحا من جماعة أنصار السلام يوم أن كان سكرتيرا في تلك الجماعة، ونظرا لعدم توافق الرؤى ما بينه وبينهم يقدم استقالته من تلك اللجنة، قائلا: "فاجأني إجماع الحاضرين من أعضاء اللجنة على أن ذلك يعد تهديدا صارخا للسلام العالمي، وأن مجرد تفكير العرب في القضاء على إسرائيل يعد من الأمور التي لا يمكن أن يقبل بها العالم"[3]. ويعد هذا التصريح بالنسبة له خطيرا جدا، "وهكذا لم يدم انتسابي لهذه الجماعة أكثر من ثمانية ايام"[4].

بعد تجربته مع أنصار السلام والتي ينعتها بالفاشلة، ينجرف في تيار الإخوان المسلمين مع شقيقه غالب، نظرا للسمعة التي تتمتع بها هذه الجماعة بين الطلاب ومواقفها النبيلة من قضية فلسطين، كل هذا حفز الشباب على الانخراط في صفوفها، قائلا: "وانطلاقا من هذه القناعة انخرطت وأخي غالب في صفوف جماعة الإخوان المسلمين، وأصبحنا

---

1) سمرين، أوراق الشتات ص١٥٩.

2) نفسه، ص١٦٠.

3) نفسه، ص١٩١.

4) نفسه، ص١٩٢.

عضوين في إحدى خلاياها بعد عودة الأسرة إلى القدس بقليل"[١]. واستمر انتماؤه لهذه الجماعة مدة عامين، ثم حدث بعد ذلك انشقاق عن الجماعة بلا رجعة، بسبب مخالفتي في الرأي لهم على إثر ندوة أقيمت للجماعة عنوانها "في سبيل نهضة إسلامية بأي شيء نبدأ"، وبعد أن فرغ المتحدثون أورد تعليقا لم ينل رضا القائمين على الندوة، بالقول: "إنني أرى أنه لا سبيل إلى قيام أية نهضة في الوقت الحاضر، سواء أكانت إسلامية أو غير إسلامية إلا بقيام انقلاب عسكري يدمر هذه الأوضاع القائمة، ويقلبها رأسا على عقب..." [٢]. هذا التعليق أحدث ضجة كبيرة في جمهور المستمعين، ولكن يرد على هذا التعليق من قبل عريف الحفل، قائلا: "إن رأي الأخ رجا هذا رأي شخصي، وهو لا يعبر بالضرورة عن رأي جماعة الإخوان المسلمين"[٣]. وسرعان ما أغاضه هذا الرد وسبب له انفعالا، رادا على ذلك: "أما وقد برئتم مني فإني أبرأ منكم كما تبرؤون"[٤].

وأما عن بداياته الأولى في أثناء إقامته في الأردن، فقد عمل مدرسا في مدرسة "السلط" وكان يشرح لطلاب الصف الثالث الثانوي درسا عن الأدب العربي في الأندلس، وقد وردت عبارة[٥]، أثارت جدلا كبيرا بينه وبين بعض الطلبة، كانوا منتظمين في حزب التحرير الإسلامي وحزب الأخوان المسلمين، مما أشعل وابلا من النيران وتقدم أهالي السلط

1) سمرين، أوراق الشتات، ص٢٢١.

2) نفسه، ص٢٢١.

3) نفسه، ص٢٢٢.

4) نفسه، ص٢٢٢.

5) العبارة هي " الحضارة العربية" وبعضا من الطلبة يريدون "الحضارة الإسلامية"، للمزيد أنظر المصدر السابق، ص٢٥٣.

بشكوى ضده وتم مهاجمته في المساجد، واتهم بالإلحاد والشيوعية وبتسميم أفكار الناشئة، إلا إنه أخيرا يتم تبرئته من هذه التهم جميعا، "وأخيرا توصلت اللجنة إلى قرار يقضي بعدم إدانتي واقترحت على الوزارة أن تكتفي بتوجيه لفت نظر إلي"[1].

ومن ثم يستطرد بالذكر عن نشاطه السياسي داخل الأردن، وعن معاناة أسرته من الأحكام العرفية في تلك الفترة، مبينا عمليات التفتيش التي كانت تتم بين الحين والآخر من أجل إدانته في أي شيء؛ إذ إن نشاطاته الحزبية كانت تنحصر في إطار ضيق داخل الأردن، بعكس ما ذكره عن نشاطاته السابقة في دول أخرى، باستثناء المنشورات التي كانت في حوزته في مدرسة السلط، قائلا: "كان الجو باردا وكنت أرتدي معطفا سميكا.. وكانت جيوب المعطف محشوة بمجموعة كبيرة من المنشورات الصادرة عن الجبهة الوطنية"[2].

ثم يصور لنا معاناته من قبل وزير التربية محمد أمين الشنقيطي، يوم قام برثاء الزعيم الكونغولي "باتريس لومومبا" الذي قاد شعبه في نضاله من أجل التحرر من براثن الاستعمار البلجيكي، مما أغضب الوزير على نشره لهذا المقال وتم مخاطبته بالهاتف شخصيا وتوبيخه على هذا المقال، مما أثار دهشته واستغرابه من الوزير. ويتم إرسال بلاغ لكافة معلمي التربية يمنع ممارسة مثل هذه الأعمال، مما أعطاه شهرة سياسية وسمعة واسعة النطاق بين معلمي وزارة التربية، قائلا: "ولكن غير العادي وغير الطبيعي هو أن يطلع وزير التربية والتعليم الشيخ (الشنقيطي) على تلك القصيدة فتثور ثائرته، وتقوم قيامته، ويعتبر ذلك تدخلا من صاحب القصيدة في السياسة"[3].

---

1) سمرين، أوراق الشتات. ص٢٥٦.

2) نفسه، ص٢٧٣.

3) نفسه، ص٢٨٧.

في مجمل المحاور السابقة، يكون سمرين قد أوجز من الاستحضار السردي للأحداث والوقائع الثقافية والسياسية الخاصة بالأردن، نتيجة لمجيئه إلى الأردن في فترات متأخرة، وأسهب كثيرا في الحديث عن الأوضاع السياسية الخاصة به على الصعيد العربي، نتيجة تنقله لأكثر من مكان داخل الوطن العربي. حيث دخل الأردن في المرة الأولى في عام ١٩٥٥م ولم يمكث طويلا وعاد في المرة الثانية في عام ١٩٩٩م كما ورد في سيرته الذاتية.

وفي حديثه السياسي العام، يشير فيه إلى انتظامه رسميا إلى جماعة فتح عام ١٩٧٤ ولكنه سرعان ما ينهي علاقته بها، "نظرا للأيديولوجية الضيقة التي تتبناها هذه الجماعة"(١). مختتما بذلك سيرته الذاتية، ومشيرا إلى أنه انتظم في أكثر من تنظيم سياسي، منذ جماعة أنصار السلام ومن ثم الإخوان المسلمين وبعدها إعجابه بجماعة القوميين العرب إلى أن انتهى به المطاف في منظمة فتح، مبينا وجهة نظره في هذه الأحزاب التي انسحب منها جميعها، بالقول: "لذلك فإن أهم ما أوصيكم به أيها الأبناء والأحفاد هو أن تحافظوا على استقلاليتكم وأن تعظوا عليها بالنواجذ، وألا يفكر أحد منكم ذات يوم في الانضمام إلى أي حزب أو جماعة أو تنظيم مهما كانت الإغراءات أو المبررات، وبخاصة وأنكم تعيشون في ظلال أنظمة لا تعترف بالآخر ولا برأيه..." (٢).

بهذه الاعترافات وبهذه النهايات لرجا سمرين، يعلن عن نهاية كافة الأعمال لديه سواء كانت عملية أو حزبية، مؤكدا التزامه بقضايا أمته وبلاده، قائلا: "أقوم الآن بدور

1) سمرين، أوراق الشتات. ص٤٦٩.

2) نفسه، ص٤٦٩.

المتقاعد الذي لا يدري إلى أي مدى يطول به الوقت وهو يؤدي هذا الدور الذي هو في الحقيقة من أصعب الأدوار، بل أصعبها على الإطلاق"[1].

وخلاصة القول إننا نشهد بما تقدم من عموم تلك السير الصادرة في الأردن بين عامي ٢٠٠٠م ـــ ٢٠٠٥م، تنوعا خاصا مميزا في عملية الاستحضار السردي بشكل عام من شخوص وأحداث تاريخية؛ وحقائق وعلاقات ورسائل وأخبار...الخ، تمثل هذا في عملية الاستحضار للإطار الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي، ومدى الترابط والتلاقي ضمن هذه الأطر الحياتية وتوظيفها في تلك السير، وإظهارها بشكل واضح وجلي من خلال الصور التي قدمها أصحابها للواقع المعيش سواء كان فردا أو مكانا، وما تصويرهم وجلبهم لهذا الواقع إلا ليدللوا به على الذات المتطلعة إلى الآفاق، التي تود النفاذ والخلاص إلى واقع أرحب وأوسع من السابق، وفعلا تم لها ذلك.

من هنا تنبع أهمية السيرة الذاتية، إذ "يبدأ الإبداع الأدبي في كتابة السيرة، الشخصيتان حيتان وغير مستقرتين، الشخصية المكتوب عنها وشخصية كاتب السيرة، هذه تتحرك وتكشف عن جوانب خفية وهذه تتحرك ويتغير فهمها وذوقها من حين إلى حين حسبما يؤثر فيها من تلك، ونحن نصور هذه العملية كتابة ونحصرها بين دفتي كتاب، ذلك هو المنجز الأدبي الذي وصفه كتنكز: "إنه أكثر المنجزات المتحققة أهمية في عصرنا الراهن"[2].

---

1) سمرين، أوراق الشتات، ص: ٤٧٠.

2) ياسين حافظ، فن كتابة السيرة: طبيعته وعناصر تطوره، مجلة أفكار.

الفصـــل الثالث

السيرة الذاتية والتشكيل الفني

أنـــواع الســـير الـــذاتيـــة

الأبعاد الفنية للسيرة الذاتية

العنوان، اللغة، الزمن، المكان، السرد.

السيرة الذاتية والتشكيل الفني

لا بد لكل عمل فني من تشكيل وبناء خاص فيه يقومانه وينميانه، إذ إن السيرة الذاتية تنبع من ثلاثة أشياء يكنزها الشخص داخل أعماقه النفسية، مشكلا بها موضوعا مهما ومرتبطا بعضه مع بعض بفعل العناصر المكونة، "فالسيرة الذاتية إذا تعبير عن "داخل" الأديب في حالة "انفعاله" بالخارج إن صح هذا التعبير ذلك أنها في نهاية الأمر تحقيق للوجود الفني للأديب في صميم العالم الواقعي"(١). ولكن هذا التشكيل يحكمه إطار اتصالي في قالب اجتماعي: "فعملية الإبداع الفني في السيرة الذاتية إذا تقوم على أساس من "الاتصال الذاتي" الذي يجعل منها "نصا أدبيا" صالحا "للتوصيل"، كما يجعل كاتبها يرضى عن عمله"(٢).

ويصف إحسان عباس السيرة الناجحة بأنها السيرة التي تمتزج فيها "هذه العناصر على أنصبة متفاوتة، فإذا كان الشخص الذي يترجم لنفسه ذا منزلة خاصة في المجتمع، وكان يرمي إلى إنشاء هذا التعاطف بينه وبين القارئ، وإقامة سيرته ضمن بناء فنيّ، لم يغفل فيه قيمة الأسلوب وتأثيره، وكان ماهراً في الربط بين الصورة الداخلية لحياته وانعكاساتها في الخارج، عندئذ تتم سيرة ذاتية مكتملة"(٣).

وفيما يخص أنواع السيرة الذاتية ومدى الترابط فيما بينها، نجد أن العلاقة ما بين السيرة الذاتية والتاريخ قائمة دون انفصال وارتباطهما الوثيق بالأدب، ونلحظ تداخلا فنيا لا غنى لبعضهما عن الآخر، إذ إن الانفراد بسرد الأحداث التاريخية يضعف الأداء الفني

1) شرف، ص١٣٢ــ ١٣٣.

2) نفسه، ص١٣٧.

3) عباس، ص١٠٧.

للسيرة الذاتية، "ولكن البناء الروائي ــ على سبيل المثال ــ ينقذ كاتب السيرة، فقد يغفل كاتب السيرة بداية الحدث، حتى إذا تم قدم لنا بدايته على شكل ذكريات ثم ألقى بنا في خضمها حتى النهاية، وقد يلقي خيوط الشخصيات والأحداث ولكنها لا تتشابك ولا تفلت من يده أبدا، فهو يجمعها في النهاية دائما مما يوحي لنا بأننا نقرأ قصة واقعية بطلها نعرفه، وليس الأمر في السيرة الذاتية أمر سرد للأحداث لأن كاتب السيرة يدرك أنه يعرض رحلة الحياة، فلا بد إذن من حس قوي بالكشف، حس الرحالة الذي يشم الخطر فيستعد له، وحس الفنان الذي يوجهه دائما نحو المجهول ليكتشفه ويجلو أبعاده"[١].

وبخصوص العناصر الفنية للسيرة الذاتية، من حيث الزمان والمكان في تسلسل الأحداث وترتيبها؛ الأسلوب الحواري؛ التذكر الرمزي الذي يعين على اكتشاف الحقيقة؛ صورة الواقع الذاتي؛ الصدق في تقديم الحقيقة؛ استخدام الشعور الحسي من عوامل نفسية وخلقية ومزاجية وفكرية وسلوكية لتقديم واقتناص ما هو مفيد[٢]. تعتبر هذه العناصر ضرورية جدا في تشكيل محتوى السيرة الذاتية.

أنواع السيَر الذاتية والأبعاد الفنية:

أــ "السيرة التاريخية التسجيلية"[٣].

إن فن السيرة الحديث يختلف كليا عن السيرة في السابق، "فالسيرة الجديدة راحت تبحث وراء الوثائق والشهادات لتكتشف حقائق أخرى من تلك الحقائق، ولتخرج بأمور أكثر

---

1) فهمي، **السيرة تاريخ وفن**. ص٢٥٠-٢٥١.

2) للمزيد، أنظر يحي ابراهيم عبد الدايم يتناول تلك العناصر بشكل مفصل، **الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث** ١٩٧٤ ص٥.

3) أنظر شوقي المعاملي، السيرة الذاتية في التراث، ١٩٨٩، ص١١ــ١٣.

قربا لتلك الشخصية، تساعد على فهم الشهادة نفسها أو الحقيقة التاريخية، فهما آخر، لقد نقل هذا الفهم الجديد، البيوغرافي، إلى فهم أوسع"(١).

لكن على الرغم من الاختلاف ما بين القديم والحديث وهذا طبيعي، تبقى العلاقة وطيدة ما بين السيرة والتاريخ، إذ إن السيرة نشأت في كنف التاريخ وترعرعت في أحضانه حتى العصر الحديث، وأصبح الحضور التاريخي يتجلى في عرض تتابع التجارب وتكاملها وانعكاس الأحداث ونمو المواقف، "إن إنسانا بلا ماض وجود بلا هوية، وأمة بلا عمق تاريخي ووعي به أحداث ووقائع لا لون ولا طعم ولا رائحة لها"(٢).

من هنا جاء الارتباط الوثيق ما بين السيرة والتاريخ، لتسجيل تلك الوقائع والأحداث الهامة والمميزة في حياة الأفراد منذ القدم. يكاد يجمع معظم الكتاب على أن كتابة السيرة الحديثة بدأت تأخذ منحى آخر من كتابة السيرة السابقة، "وكانت العناية بالجانب التاريخي والأخلاقي ترد على حساب ضعف الجانب الفني، ولهذا السبب، لم تعرف كتابة السيرة في الأدب العربي النضج ولا التكامل في استيفاء شروط الكتابة الفنية ومقوماتها إلا حديثا"(٣).

تمثل ذلك في سيرة رجا سمرين "**أوراق الشتات**"، والتي يغلب عليها الطابع التاريخي في ثبت الحقائق والوقائع، إلا أنه يقدم اعترافه، بالقول: "لهذا كله فإنني لا أستطيع أن أزعم أنني قلت كل ما أردت قوله وأثبت كل ما رغبت في إثباته في هذه السيرة، التي مزجتها ببعض الإشارات التاريخية التي تساعد المطلع عليها في فهم أحداثها وتقلباتها"(٤). معتبرا أن

---

1) ياسين طه حافظ، فن كتابة السيرة طبيعته وعناصر تطوره. ص١٧٣.

2) الكبيسي، ٢٠٠٣، ص٩١

3) نفسه، ص٩٥

4) سمرين، أوراق الشتات. ص٤٤٩

الصراحة تجر كثيرا من المتاعب على صاحبها، متماثلا في هذا مع المجالي، قائلا: "أعشق الصراحة التي جرت على كثير من المتاعب"(١).

وعودة إلى ماهية السيرة الذاتية، لندل على العلاقة القائمة ما بين التاريخ والسيرة الذاتية، فهي تأريخ حياة إنسان كتبها بنفسه، مؤكدة على حياته الخاصة في سبر أعماقه الفكرية، ودوافعه ومشاعره الذاتية، وهذا يؤدي بنا إلى القول: إن السيرة الذاتية تتكون من الأدب والتاريخ وذلك لأنها تتعلق بالحياة البشرية المهمة في ماجريات الأحداث التاريخية، مسجلة التفاصيل الأساسية من تفاعل العواطف الإنسانية بعضها مع بعض، وذلك عن طريق سرد منطقي لحياة كاتبها الخاصة.

إذن هي قصة حياة شخص؛ ترجمة لحياته الداخلية؛ تجارب شخصية حقيقية؛ تثير الرغبة في الكشف عن عالم مجهول؛ وهي خلاصة السنين من تجارب ومآس وأفراح واقعية ووجدانية، نجد هذا في مقولة رائعة، "لسومرست" في مقدمة سيرته الذاتية: "ولست أرمي إلى تدوين سيرة حياتي في هذه الأوراق أو إلى تسطير ذكرياتي، فقد عملت بطرق مختلفة على أن أورد في مؤلفاتي مما جرى لي في خضم هذه الحياة"(٢).

نجد أن السيرة الذاتية فن قائم بذاته، "تتشابه مع الفنون الأدبية الأخرى في العناصر الفنية المكونة له وتتداخل أحيانا أخرى مع تلك الفنون"(٣)، لكن استقلاليتها تكمن في طرحها الجاد للموضوعات وبعدها عن الخيال. وفي هذا الخصوص يقدم لنا إحسان عباس، خلاصة مفادها: "إن السيرة فن لا بمقدار صلتها بالخيال، وإنما لأنها تقوم على خطة أو رسم

---

1) نفسه، ص٤٥٠

2) سومرست موم، عصارة الأيام.١٩٧٢، ص١

3) كالمذكرات والذكريات واليوميات والرسائل والسيرة الغيرية والرواية.

أو بناء، وعلى ذلك فهي ليست من الأدب المستمد من الخيال، بل هي أدب تفسيري، وهذا النوع من الأدب كالأدب الذي يخلق خلقا، من حيث أن صاحبه معنيّ بغاية محدودة تهديه في اختياره وترتيبه للحقائق، وهو كالروائي والقاص أيضا، يحاول أن يكشف عن الصراع بين بطل سيرته والطبيعة، وصراعه مع الناس والآخرين ومع نفسه وهو يحاول أن ينقل إلى القراء حقيقة ذات قبول عام... "[1]. بهذا السياق يتم التداخل ما بين عمل كاتب السيرة وصاحب السيرة الذاتية، وقربهما من دور الناقد الأدبي في تبيين الغث من السمين، ونستدل على ذلك بمقولة بيف[2]: "إن المهمة الأولى والأخيرة للناقد هي أن يقرأ، فيفهم، فيحب ويقدر، ثم يسهل للآخرين ما قرأه وما فهمه وما أحبه"[3]. إذ ينطبق هذا القول على كاتب السيرة الذاتية وخاصة الحديثة منها، بدليل أن: "السيرة ما عادت حقائق وأحداثا تاريخية، ما عادت علاقات، وما عادت رسائل وأخبارا، بل صارت ذلك كله ومعه العناصر المكونة الجديدة"[4].

بمعنى، إن كاتب السيرة يتشابه مع الناقد في تقديم المفيد وتقصي الأثر عن طريق طرحه الصادق ووعيه التاريخي، في استحضار الأحداث والوقائع التي ألمت به وبمحيطه الاجتماعي ــ الأنا والهو والآخر ــ وتقديمها في نص أدبي يبتعد فيه عن العاطفة، ويتم بناؤها على أساس متين من الصدق التاريخي لأن، "الخيال قد يخرجها مخرجا جديدا ويجعلها قصة منمقة ممتعة"[5].

---

1) إحسان عباس، ص٩٠.

2) سنت بيف: ناقد فرنسي احتل ذروة من أرفع ذراه في النقد الأدبي ، أنظر احمد أمين، النقد الأدبي، ١٩٦٧، ص٣٦١ وما بعدها.

3) نفسه، ص٣٧١ .

4) ياسين طه حافظ، فن كتابة السيرة: طبيعته وعناصر تطوره، ص١٧٣.

5) إحسان عباس، ص٧٤.

ب- "السيرة الذاتية الأدبية"[1].

يعد الشكل الروائي في كتابة السيرة الذاتية من أرقى الفنون التي تستعين به السيرة الذاتية لكتابتها، وذلك بفضل تواجد عنصر الإبداع والخيال الفني، والمتتبع لأبرز السير الذاتية وأميزها يجد فيها الكثير من الأسلوب الروائي، وقد أفصح (ماي) عن هذا، بالقول: "ذلك أن معظم السير الذاتية المنتمية إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بعصر السيرة الذاتية الذهني، قد اتخذت من الرواية مثالا لها"[2].

إذن هناك علاقة للسيرة الذاتية بالرواية يصعب الفصل بينهما، فقد نجد عنصرا مفارقا في علاقة هذا الشكل بالشكل الآخر ولكن الحدود الفاصلة قد لا تبدو مطلقة ونهائية، بالرغم من أن النظرية الأدبية تستبيح التداخل ما بين الأجناس الأدبية، إلا أن العلاقة ما بين السيرة الذاتية والرواية أكثر التباسا، فكثيرا ما ينظر إلى الرواية على أنها سيرة ذاتية، وبذلك نجـد أن: "كلا النوعين من النصوص ينتمي إلى الجنس الأدبي نفسه، وهو مشروع السيرة الذاتية (أو المشروع الأوتوبيوغرافي)، والذي يعتبر ملمحا عاما للحساسية الجديدة وللإبداع الجديد؛ فالكاتب يشعر بأن صدقه الخاص لا يمكن أن يتحقق إذا هو قيد خياله الخلاق بشكل أو شكلين من الكتابة؛ إذ إنه لكي يقترب من ذاته لا بد من الأسلوبين الواقعي والخيالي"[3]. وقد ظهرت أجناس وسيطة ما بين الرواية والسيرة الذاتية، شأن رواية السيرة الذاتية أو السيرة الذاتية الروائية، هذه المسميات توظف أساليب سردية متشابهة سعى منظرو الأدب إلى البحث عن الحدود الفاصلة للتمييز بينها، ولذلك ستظل هناك إشكالية كبرى ما بين الروايـــة

1) أنظر وحي عبد الدايم وروكي، ص٢٢٧.

2) ماي، ص١٨٤.

3) رووكي، ص٩٢.

والسيرة الذاتية يجب التنبه لها، لكن على الصعيد الحالي نجد أن المهتمين بهذا الخصوص، قد بينوا أن ميثاق القراءة الحكم الأساس للتمييز بين الرواية والسيرة الذاتية، لهذا نجد أن: "هناك صعوبة أساسية في أي محاولة منهجية لتصنيف الأدب الشخصي بخصوص علاقة السيرة الذاتية بالرواية: كيف يمكن التمييز بين النوعين؟ الإجابة عن هذا السؤال الإشكالي في هذه الدراسة تتم عن طريق تعريف "عقد القراءة"، "The Reading Contract" الخاص بالنص"[1]. فالميثاق الروائي يظهر فيه الخيال كثيرا على العكس من السيرة الذاتية التي تعتنق الحقيقة دائما، "ولما كان نضج الرواية سابقا في الزمن على نضج السيرة الذاتية، فليس لنا أن نستغرب من أن تكون السيرة الذاتية قد أخذت عند نشأتها الطرائق السردية التي سبق أن اعتمدت في كتابة الرواية"[2].

بهذا الخصوص فقد حدد لوجون جنس السيرة الذاتية، لتفريقه من بين الأجناس الأخرى، وأعاد النظر في أطروحته المتعلقة بهذا الجنس، ونقد منهجه في كتاب آخر "الميثاق السير ذاتي" ووضع حدودا[3] أربع لجنس السيرة الذاتية على اعتبار أنها جنس قائم بحد ذاته، هي: شكل اللغة، فالسيرة الذاتية هي قصة نثرية؛ الموضوع المطروق، وهي تروي حياة فردية وتاريخ شخصية معينة؛ وضعية المؤلف، إذ لا بد من التطابق بين المؤلف والسارد؛ تطور الحكي، باعتباره حكيا استعاديا بالضرورة؛ وبذلك حول دراسة الأدب إلى ما يشبه المعادلات العلمية الصارمة، تنفي الاختلاف والتنوع والفرضيات الممكنة، وتعوزها المرونة اللازمة التي تنظر إلى الإبداع الأدبي على انه متطور ولا يستقر على حال. يعتبر لوجون

1) أنظر المصدر السابقة، ص٩١.

2) ماي، ص١٨٣.

3) للمزيد أنظر فيليب لوجون، ص٢٢- ٢٣.

المعايير التي ذكرناها محددة لجنس السيرة الذاتية، ولكن غياب معيار واحد منها أو أكثر، يخرج الأثر الأدبي عن مساره المطلوب ليفضي إلى مسار آخر.

من هنا، نجد أن السيرة الذاتية بوصفها جنسا سرديا ظهر بعد الرواية، وطبيعي أن يفيد هذا الجنس من إنجازات الرواية الفنية إفادة كبيرة، وهذا سبب التداخل بين الجنسين الذي أحدث التباسا لدى بعض الكتاب، وأن من أنجح السير الذاتية هي التي يكتبها روائيون لأنهم يدخلون بها من موضوع عام إلى موضوع خاص، لهذا جاءت السيرة الذاتية في القرن العشرين نصوصا فنية متكاملة، وذلك نتيجة لوعي كتابها الفني بإشكاليات الجنس الأدبي، وامتلاكهم للأساليب الفنية التي ارتقوا فيها إلى أعمال فنية كبرى، فتوظيف العناصر الروائية والإنشائية لفائدة السيرة الذاتية، وربط الحياة الخاصة والعامة في سيرة المؤلف، كلها مواضيع ذات علاقة وثيقة بطبيعة هذا الجنس الأدبي، وهذا يعني أن المادة الحكائية التي تصنع السيرة الذاتية، تخضع لضرورات الفن: "إن السيرة الروائية تحاول الكشف عن الأسرار التي تكتنف حياة شخصية معينة، من خلال تفاعلها بالمحيط الاجتماعي، والعلاقات الإنسانية، وتطورها الذاتي، متوسلة بأسلوب السرد، والسيرة الذاتية تقوم على مثل هذا الأساس غير أن السيرة الروائية تعتمد في الوقت ذاته على عدم التطابق بين شخصية المؤلف المذكور على الغلاف والشخصية التي تشكل موضوع النص"(١)، وهذا ما يفرق بين الرواية والسيرة، والسيرة الذاتية، حسب رأي لوجون(٢).

---

1) لوجون، ص١٤.

2) للمزيد حول هذا الموضوع، أنظر المرجع السابق، ص١٤ـ ١٥.

كما يعتقد أغلب الكتاب، أن كتاب "الأيام" لطه حسين، قد اكتملت به السمات الفنية للسيرة الذاتية وكسر سلسلة الأجناس الأدبية كسرا عنيفا، بعكس الرواية التي كانت بدايتها عسيرة جدا بالرغم من تعدد الأشكال الفنية في صياغة السيرة الذاتية.(١)

وما يميز الشكل الروائي في كتابة السيرة الذاتية المعنية: الشكل السردي، الذي يجمع بين رواية الأفعال والأقوال، ويستخدم السارد الوصف كثيرا، إذ نلحظ هذا الأسلوب متمثلا في سيرة، رجا سمرين، "**أوراق الشتات**"، قائلا: "كانت الفتاتان تسيران في شارع نصوح باشا في اتجاه شارع سليم الأول. وكانت إحداهما متوسطة الطول شقراء، لها عينان ساحرتان، يتدلى شعرها الأشقر في ضفيرتين ذهبيتين طويلتين على ظهرها، وفوق جبينها خصلة من شعرها الأشقر متهدلة تضفي على جبينها هالة سحرية تأخذ بالألباب...على ثغرها ظل ابتسامة يخالها الرائي أنها صفة ملازمة لشفتيها المكتنزتين، لها قوام رشيق يقوم فوق ساقين مدملجتين؛ في مشيتها دلٌ وخيلاء ينمان عن اعتداد بالنفس، وإحساس بما تمتلك صاحبته من جمال وفتنة، وفي نظراتها منابع للإلهام لا يستطيع أن يستنفد وصف ما فيهما جميع الشعراء"(٢). هذا نص روائي يوجد به نوع من الخيال، إن هذه النصوص تزيد من فنية السيرة الذاتية، وفي حال التخلي عن هذه النصوص الوصفية في السيرة الذاتية فإن ذلك لا يؤثر على العمل بشيء.

وفي العودة إلى تلك النصوص المعنية، تمثل حضور البناء الفني لدى فالح الطويل في سيرته الذاتية، بجزأيها: "**مدارات الذاكرة**" و "**في الطريق إلى عمان**" بتنوعه وتوظيفه

1) أنظر شكري المبخوت، سيرة الغائب سيرة الآتي: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين. ١٩٩٢.

2) سمرين، أوراق الشتات. ص١٩٧.

لعنصر الحوار، الذي وظفه في النص لأكثر من شخص، مضفيا على تلك النصوص رونقا وجمالا فنيا، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يقول:

"قال فالح الزعبي:

ــ "نط أمام الناس مثل الأسد الطليق، يابو ردن، والحكي للجميع. لا تعرف من أين جاء. أطلق النار عليه وبقي واقفا ينظر حوله بينما ذلك العلج يتخبط بدمه. ثم قفز فوق السياج القريب واختفى مثل لمح البصر. تبوسه بين عيونه!!"

ــ "رجال والله ... سمعت أنهم لم يقبضوا عليه" قالها الضيف بهمس. فرد الزعبي قائلا: بينما أبي يلاحقه معجبا بشجاعته ــ "قشروا .... إحنا وين؟؟"

ــ برافوا يا فالح ... أنا أعنقر" طربوشي عندما اسمعهم يقولون "الأردني ." أفرحني أن أحدا منهم لا يعرف من هو "الأردني ." بعضهم يقول "الحوراني" إحنا الوحيدين الذين نعرفهم من هو هذا الذي يتحدثون عنه"(1).

فقد يكون هذا الحوار متخيلا كما الاستحضار السابق من الوصف، وسواء كان متخيلا أم حقيقيا، لا يؤثر في السيرة سلبا بل يزيدها جمالا فنيا.

وفي سيرة سليمان الموسى، "**ثمانون**" نلحظ مشهدا حواريا آخر، مبررا فيه موقفه السياسي، بعدم انتمائه وانتظامه في صفوف الحزب الشيوعي الذي اتهم به، قائلا: "لا أشك بصدق ما قلت وأريد أن أزيدك علما بأن ملف (....) هو أوسخ ملف في وزارة الداخلية كلها. ثم بادر للاتصال به هاتفيا وقال له: على أي أساس أوصيت بإخراج سليمان الموسى من عمله؟ قال خالد: لأنه شيوعي. وقال سعد: أنا أعرف سليمان منذ خمسة عشر عاما وأعرف أنه غير شيوعي، فعلى ماذا استندت في اتهامك له؟ أجاب خالد: هناك تقرير من

---

1) الطويل. مدارات الذاكرة. ص٣٤.

رجال الأمن. قال سعد: عليك أن تحضر غدا لمقابلتي وأحضر معك جميع الأوراق المتعلقة بهذا الموضوع. ثم التفت سعد إلي قائلا: عد إلى المفرق وسوف يأتيك الجواب وأنت في منزلك. بعد يومين أرسل القائمقام يدعوني إلى مكتبه. لبيت الدعوة ودخلت إلى مكتبه، فأخذ يعاتبني على الشكوى التي قدمتها بحقه (هكذا يفعل ذوو الوقاحة). ثم قال: أريد أن أرسل كتابا من أجل إعادتك إلى العمل ولكنني أريد أن تكتب الكتاب بيدك. حاولت أن أعتذر عن هذا التكليف إلا أنه أقسم إيمانا مغلظة بأن أفعل، وكانت حجته في ذلك أنني عندما أكتب النص بيدي فإن ذلك يقنعه بأنني رضيت وذهب الحقد من نفسي. ووافقت أخيرا، ثم وقع الرسالة بإعادتي وإعادة زميلي إلى العمل. أسجل هذه القصة لأنها تعطي نموذجا عن بعض الأشخاص الذين ابتليت بهم بلادنا..." [1].

وفي الختام نلحظ أن الرواية بشكلها العام، تعتبر من الأجناس الأدبية الأكثر قربا من السيرة الذاتية، التي تستعين بها لأداء ما يميزها في البناء الفني، إذ يوجد تداخل كبير بينهما، وتساعد الرواية السيرة الذاتية في عملية التخيل الطبيعي (الواقعي)، لجنس الرواية الأدبية.

ج- الأبعاد الفنية للسيرة الذاتية

تتفاوت الأبعاد الفنية في كتابة السيرة الذاتية من عنصر إلى آخر: "وهو مع المنظور واحد من العنصرين المهمين في التحكم في المعلومات السردية، فحينما يكون التدخل السردي أكثر تخفيا والتفاصيل الخاصة بالمواقف والوقائع أكثر تعددا فإن البعد المتحقق بينهم وبين السرد أقل بعدا؛ فالمحاكاة أو الإظهار بشكل بعدا أقل من الحكي والإخبار..." [2]. إذ نجد أن لكل عنصر مهمة ووظيفة تؤدى على حده في السيرة الذاتية، وكلما اشتملت السيرة

---

1) الموسى، ثمانون. ص٨٨.

2) جيرالد برنس، **المصطلح السردي**، ترجمة عابد خزندار. ٢٠٠٣، ص٦٥.

الذاتية على تكامل العناصر الفنية في عملية الكتابة، كان ذلك أجدى في تقديم الصورة الحقيقية لفن السيرة الذاتية من خلال تلك الأبعاد التي يقدمها صاحب السيرة الذاتية، لهذا يصعب جدا على كاتب السيرة الذاتية أن يتخلى عن تجربته الحياتية الخاصة، حيث المكان الذي عاش فيه منذ الصغر حتى المراهقة، والزمن الذي يتألف من لحظات خاصة ومراحل معينة. تجد في ثنايا النصوص مجموعة من الأصداء والشظايا منذ ذلك الزمن الماضي، وكل هذا انعكاس للذات. فكاتب السيرة الذاتية تجده يقدم مجموعة من اللوحات سواء كانت اجتماعية أو سياسية، مقدما معها صورا شخصية عن وضعه ضمن تلك اللوحات أبعاد سيرته الذاتية من تجارب شخصية وذكريات؛ وأحلام ورغبات. ومن العناصر الفنية والخصائص المميزة لطبيعة السيرة الذاتية التي تجلت فيها الأبعاد الفنية نذكر منها:

أولا: العنوان.

تكمن أهمية هذا البعد في دلالته الواضحة على كنه العمل النصي، ويعد في أغلب الأحيان دليلا على كثير من الأمور الباطنية لصاحب السيرة، في كشف كثير من رؤى وأفكار الكاتب نفسه، ويشكل العنوان وجهة نظر لدى القارئ يحكم من خلالها على المحتوى بحسب خلفيته الفكرية والذهنية. وعن أهمية العنوان ودلالته تحدثنا التميمي قائلة: "عنوان السيرة الذاتية مفتاح الكاتب/الكاتبة إلى عمله، وهو مفتاحنا إلى عقل كاتب/ كاتبة السيرة وقلبه/قلبها. وتتشابه عناوين السيرة إلى حد كبير، ولكن هذا التشابه لا يعني بحال من الأحوال أن هذا العمل بالضرورة سيرة ذاتية أو فرع من فروعها كالمذكرات أو الاعترافات أو اليوميات"(١).

---

١) أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر. ٢٠٠٥، ص١٨٩

ونبدأ بسيرة سليمان موسى "**ثمانون**" إن أبرز ملمح نكشف لنا من ثنايا العنوان، البساطة والوضوح والدقـــة في تصوير ما مضى لصاحب السيرة نفسه، عنوان بسيط لكنه يوحي بدلالات كثيرة، فيه امتثال لميثاق السيرة الذاتية.

من هنا نجد تطابقا فيما يطرحه سليمان موسى وتوافقا مع ما قدمه لوجون بهذا الخصوص، إذ ركز لوجون على اشتقاق مصطلح السيرة الذاتية من ثنايا النص نفسه قبل الشروع في السيرة الذاتية، قائلا: "فمن المفروض فيمن يحتك بالسيرة الذاتية ويدرسها أن يبدأ بتحليل متن ما بدل الاقتراح المتسرع للتعريف"[١].

وبهذا يتمثل المصطلح لدى سليمان موسى، باستعادة ذلك الماضي، بسرد نثري يقف على حقيقة الأمر، مبتدئا في العنوان بكلمة "**ثمانون**"، متماثلا في هذا مع "ميخائل نعيمة، في العنوان الذي وضعه لسيرته الذاتية، "**سبعون**"[٢].

وفي حقيقة الأمر جاء العنوان لدى الموسى، يعبر عن: مجمل الماضي وسنوات العمر منذ الولادة حتى الانتهاء من كتابة السيرة الذاتية، رحلة: هي جزء هام في تشكيل عناصر السيرة الذاتية، يتنقل بها الكاتب من مرحلة إلى أخرى، وفي تعريف "كو" للسيرة الذاتية يرى "أنـــها تتميز ببعد ملحمي، وتتصف بحبكة نموذجية "فهي تغطي مساحة زمنية عريضة ومدى واسعا من الأحداث مع بطل أو (بطلة) يبدأ (أو تبدأ) الرحلة مرورا بتجارب عدة، هي التي تشكل شخصيته (أو شخصيتها) النهائية في آخر الأمر... والحقيقة أن وصف الحياة بالرحلة، هو وصف أو تشبيه أو كتابة محببة بالنسبة لكثير من كتاب السير الذاتية"[٣].

---

1) لوجون، ص٩

2) أنظر، ميخائيل نعيمة، سبعون. ٢٠٠٣م.

3) رووكي، ص٢٠٧.

الأيام: معاناته في تحقيق طموحاته ورغباته، مرحلة تحقيق الذات أو الشعور الداخلي: "الصدق مع الذات فضيلة"(١). الأعوام: التطورات والأحداث والتغيرات من مشاهد أو وقائع أو أحوال، وهذه الأخيرة تعتبر عنصرا هاما في السيرة الذاتية حسب تعبير ماي: "إن هذا العنوان البسيط يقدم إيجازا لأهم المحاور الرئيسية في سيرته الذاتية، متواضعا في التعبير عن ذلك، بالقول: "قصة حياتي. قصة متواضعة قد لا يكون لها أهمية، لأنني لم أحقق إنجازا بارزا بالمقاييس الواسعة. ومع ذلك خطر لي أن أرسم خطوطها وملامحها على الورق لأبنائي وأحفادي. ولمن سيأتي من بعدهم من أبناء وأحفاد..." (٢).

أما الطويل فإنه اختار لسيرته عنوان "**مدارات الذاكرة**"، ليجمع بين الذاكرة الشخصية والسيرة، إذ تعمد المذكرات إلى الإطالة في الحديث عن النفس أو الشهادة على الأحداث والحقائق التاريخية، التي شهدها وعاصرها وقد يكون له دور كبير في صنعها، والذاكرة أقرب شيء تربط ما بين السيرة والمذكرات، كونها تجمع بين سيرة المكان والإفصاح عن الذات حسب تعبير لوجون: "في التركيز بالنسبة للعملية التعبيرية عن وجوده الخاص"، وكذلك تكمن أهمية سيرته الذاتية في توظيفه للموروث الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي. بهذا يكون قد أعطى سيرته نضوجا في المضمون بتوظيف تلك العناصر، وطورا فنيا في الشكل الدال لعنوان سيرته الذاتية.

وفي الجزء الآخر من سيرته فقد اختار عنوان مختلف الدلالة والإيحاء، في الطريق إلى عمان: أوراق سفير ليدل به على مطلبه الداخلي ورغبته في العودة إلى المكان الذي انطلق منه، "وآية ذلك أن كبار الروائيين قد عنونوا روايات لهم بأسماء أمكنة، كما فعل

1) عويس، سيرته الذاتية، ص٢٢.

2) الموسى، ثمانون، ص٦.

نجيب محفوظ مثلا في "القاهرة الجديدة"، وسهيل إدريس في "الحي اللاتيني"... وكلها روايات تحرص على حماية الذاكرة المكانية، وتجعل المكان هو الحكاية من بدايتها إلى نهايتها، مجسدة العلاقة الحميمة أو الجدلية بين الزمان والمكان" (١).

وفي سيرة المجالي نلحظ أنه اختار عنوانا مغايرا وغير متطابق مع نصوصه السردية والاختلاف يكمن في التركيز والتكثيف النصي على الجزء الآخر من العنوان، ما سمي بسدة الحكم، "ويظل العنوان مفتاحا تأويليا يرتبط أحيانا بالمضمون، ولكنه يبتعد عنه في كثير من الأحيان فيبدو العنوان شكليا، لا علاقة مباشرة له بالمضمون، وأية علاقة يمكن أن يقيمها المؤوّل هي علاقة من صنع القارئ المثقف ذي الخلفية الفكرية والذهنية المتفتحة"(٢).

وفي سيرة عويس **العودة إلى الهدأة**، نلاحظ تطابقا في مفهوم السيرة الذاتية بشكل عام: يفصح عن عملية الاسترجاع بالذاكرة "العودة" الرجوع إلى الماضي والهام جدا، ودالا على الشعور الداخلي والخلجات النفسية لدى صاحبها، إذ تعبر مالطي عن هذا بالقول: "ويعتبر عنوان أي نص على قدر كبير من الأهمية لأنه يمثل بداية النص الحقيقية؛ إذ تكون كلمات العنوان هي الكلمات الأولى التي يقرؤها أي قارئ للنص. ومن ثم يؤثر العنوان على توقعات القارئ لطبيعة النص"(٣).

وفي هذا نجد تطابقا لما يتطرق له وهدان عويس في بداية السيرة: "والآن أعود إلى حيث بدأت رحلتي إلى دبين وتحت ظل الهدأة لأدون ما علق بذاكرتي من أحداث، وأعطي رأيا شخصيا فيما حدث ويحدث على الساحة العربية"(٤).

---

1) بسام كطوس، سيمياء العنوان. ٢٠٠٢، ص١٣٧.

2) نفسه، ص١١٩

3) فدوى مالطي دوقلاس، من التقليد إلى ما بعد الحداثة. ٢٠٠٣، ص٢٥٣.

4) عويس، سيرته الذاتية. ص١٤.

إن نظرة فاحصة ومتعمقة لما سبق، تكشف تباينا لمفهوم السيرة الذاتية من خلال المصطلحات التي يقدمها، أعود: استرجع ذلك الزمان المنصرم، إلى حيث: الحيثيات والوقائع، أي تشكيل المحتوى السير ذاتي "النص"، بدأت: إشارة إلى ذلك الزمان زمن البدايات الأولى، رحلتي: المكان المحدد والانتقال من إلى، تحت ظل الهدأة: المكان، كتابة النص والتعبير عن وجهة النظر الخاصة من الأحداث والأحوال.

أما سيرة **رجا سمرين أوراق الشتات**، نجد اختلافا في العنوان عن باقي السير، يوحي العنوان لديه بأن صاحب السيرة قـد تنقل من بلد إلى آخر، وتبدل في الأحوال في كل بلـد كان يحل به، يغلب على سيرته الذاتية طابـع المذكرات التـسجيلية والـسرد التـاريخي، قائـلا: "منذ عام ١٩٤٨م. بدأت أحرص علـى اقتناء مفكرة صغيرة تحمل تقـويم كـل عـام جديد، وشرعت أسجل فيها ما يعرض لـي ولأسرتي من أحداث، وما تتعـرض لـه أمتنا العربية من وقائع جسام بإيجـاز شديد"[١].

وفي أخذنا لهذه المقتطفات نجد أن للعنوان أهمية ومرتكزا في الدلالة والإيحاء، أغلب السير، تتشابه في العناوين، لكنها تختلف في المضامين، وبهذا يقدم كاتب الـسيرة للقـارئ تمهيدا يؤثر على نفسية القارئ كثيرا، محددا منذ البدء في كتابة العنوان المطلـب الـسيري والمنهج الذي ينتهجه في عملية الاستحضار، مكتشفا القارئ هذا من ثنايا العنوان. من هنـا يأتي تميز السيرة الذاتية في بساطتها ووضوحها لا في عقدتها وخيالها.

ثانيا: اللغة

تنبع أهمية اللغة من مقدرتها في التحكم بإنتاج الملفوظات الفردية من الكلام، وتعـد هدفا رئيسيا في كل السرديات من وصف السرد وإعادته مرة أخرى، إذ إن أغلـب الـسير

---

١) سمرين، أوراق الشتات، ص٧.

عملت على اشتقاق الكلمات من الواقع المعيش، من لغة الشارع وعامة الناس في أسلوب أدبي ضمن وثائق اجتماعية، بلغة أدبية واقعية سمتها التشخيص الموضوعي والصدق الذاتي والابتعاد عن التصنع والتخيل.

لهذا جاءت سيرة الموسى "**ثمانون**"، سهلة اللغة وواضحة الأبعاد والدلالة: "إن "ثمانون" سليمان سيرة إخبارية ممتعة مكتوبة بلغة سهلة واضحة ومباشرة، وتتخللها في مواضع عديدة عمليات توثيق دقيقة تظهر مدى دقة الكاتب وحرصه منذ بداية حياته على تسجيل ما يتعلق به وحفظه، ولا شك أن هذا عمل يرتبط بشخصية المؤرخ، ويقع ضمن اختصاصه"(١).

وبناء عليه فإننا نجد أن الموسى يبدأ كتابة سيرته، رجوعا من الحاضر الذي كان يعيش فيه، إلى الماضي، قائلا: "عندما تتقدم سنوات العمر بالإنسان، يزداد التفاته إلى الأيام التي مضت وانقضت، إلى أيام طفولته، إلى الأم التي أرضعته وبسطت له ثوبها وهو يحبو، حتى يقف عليه ثم يسير الخطوة الأولى في حياته..." (٢).

وفي استخدام أسلوب الاستفهام والاستفهام الإنكاري بشكل ملفت للنظر في سيرته يعطي دليلا واضحا من الناحية الموضوعية عن حالة عدم استقرار، ويقدم بنية فنية مؤهلة لأن تصبح في مصاف السير الأخرى الناجحة، فقد تمثل ذلك الأسلوب في معرض السيرة، بالقول: "وهنا يكمن السر الأعظم في تكوين حياة الإنسان، أي إنسان. من هو أبوك؟ ومن هي أمك؟ في أي مكان ولدت ونشأت؟ في القرية الصغيرة الفقيرة البعيدة عن حركة العالم الدائبة، أم في المدينة الواسعة حيث المدنية وحيث المدرسة والجامعة؟ أليس هناك فارق كبير

1) زياد الزعبي، ثمانون: كثير من الرضا.. كثير من المرارة. الرأي ٢٠٠٤.

2) الموسى، ثمانون. ص٥.

بين أن تولد في الصومال تحت عريش من أغصان الدفلى يقيك ظله من حرارة الشمس اللاهبة، وبين أن تولد في ألاسكا لتعيش في بيت من الثلج؟ أين حرية الاختيار؟ أين العدالة في توزيع بني البشر على أقطار الكرة الأرضية... أهو القدر الذي صنع هذا!؟ أهي "القسمة" التي كتبت عليك قبل أن تولد؟ "[١].

إن هذه اللوحة الفنية التي يقدمها، تنم عن تصوير حالة الصراع التي ينزع اليها ضمن إيحاء دلالي، مقدما بها الأسئلة الاستفهامية التي توحي إلى معاناته وتحقيق ما يصبو إليه، في خروجه من تلك الحالة التي بدأ بها حياته.

وفي استخدامه لأسلوب التناص، الذي يعرض فيه تنوع موهبته في الجد والنشاط، قائلا: "عشت حياتي ولسان حالي يقول: أنا أعمل إذا أنا موجود"[٢]. مقتبسا هذه المقولة للعالم المشهور "ديكارت" ومن ثم ينتقل إلى استخدام فني آخر، باستحضاره لبعض الأغاني الشعبية التي يرددها الأطفال، التي كانت تطلق من أفواه الفتيات في حال انحباس المطر، مثل:

ياالله الغيث ياربـــي   تسقي زرعنا الغربي

ياالله الغيث يا دايــم   تسقي زريعنا النايم

تسقي زريع ابو سلطان   ياللي للكرم دايم[٣].

ونجده كذلك يكثر من استخدام الأسلوب الروائي في الوصف والتصوير، والذي يمزج فيه أسلوب الاستفهام فنيا مع استخدامات فعل المضارع والماضي معا في الوقت نفسه، قائلا: "ولكن كيف يدرس الطالب بعـــد غياب الشمس؟ كان هناك السراج الصغير المصنوع

---

1) الموسى، ثمانون، ص٥.

2) نفسه، ص٧.

3) نفسه، ص١٥.

من التنك وفي فتحته العليا ذبالة (القنبور)، ويعبأ بزيت الكاز. ويقترب الصبي الصغير من الذبالة المشتعلة والسنا الأسود البغيض الرائحة يتصاعد منها. يقترب مضطرا كي يرى الكلمات بعينيه، وكي يكتب الفرض. السنا يدخل في الأنف مع حركة التنفس، ولكن لابد مما ليس منه بد. فيما بعد عرفت أن الأنباط كانوا أفضل حالا منا قبل ألفي سنة ونيف... "[١].

في هذه القطعة الفنية تجد الكثير على الصعيد الفني وعلى الصعيد السردي الذاتي، لتصوير اللوعة وحالة الصراع من خلال الآخر الجمعي، في الوصف الذي يقدمه، معربا عن ذاته التي يجدها في الآخر (الطالب) المغلوب على أمره.

وعن حبه الشديد للشعر، نجد أن لديه فلسفة خاصة في قول الشعر، مستحضرا في ثنايا السيرة مقطوعات شعرية كان يطرب لها للشاعر فؤاد الخطيب في الثورة العربية الكبرى، يقول على لسان الشاعر:

لمن المضارب في ظلال الوادي ريانة الجنبات بالوراد
الله أكبر تلك أمة يعرب نفرت من الأغوار والأنجاد[٢].

وكذلك استحضاره لنونية ابن زيدون التي حفظها عن ظهر قلب:

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا[٣].

هذا الاستحضار لهذه الأبيات الشعرية، يقول عنه في معرض سيرته الذاتية: "يعطي الدليل على ذهن متطلع وعاطفة متوثبة"[٤]. ومن خلال عرضه لتلك النصوص، نجده يفصح

1) الموسى، ثمانون. ص٢١.

2) نفسه، ص٤٤.

3) نفسه، ص٥٥.

4) نفسه، ص٥٥.

في الإبانة عن أكثر من موقف لمؤلفاته الكثيرة: من روايات ومسرحيات وكتب(١).

أما مركزية الحضور في سيرته الذاتية فهو في إكثاره من استخدام ضمير المتكلم بشكل ملفت للنظر، قائلا في أكثر من موقف: "كنت أعارض القيام بأي أعمال تخريب"(٢)، "صحيح أنني كنت صديقا لأشخاص حزبيين، ولكنني لم أنضم فعلا إلى أي حزب"(٣)، كنت أتعاطف مع جماعة القوميين العرب وأكتب في جريدتهم الرأي"(٤). وهناك الكثير من استخدامات الأفعال كالمضارع والماضي، لاعتماد السيرة الذاتية عليهما كثيرا وذلك بالرجوع من الحاضر إلى الماضي.

وبهذا يكون الموسى قد "صبغ سيرته صبغة أدبية رفيعة المستوى، وذلك عن طريق توظيف عناصر اللغة لديه توظيفا دقيقا"(٥)، ضمن أساليب لغوية واضحة الدلالة في عموم ثنايا سيرته الذاتية.

أما اللغة في سيرة الطويل "**مدارات الذاكرة**" و "**في الطريق إلى عمان**" فلغة سردية متميزة في بنيتها ودلالتها، ولعل مدارات الذاكرة تقع في إطار السيرة الذاتية الروائية بما توافر لها من العناصر السردية... اللغة والسرد والوصف وعناصر التشويق والمفاجآت يبدأها رجــوعا من الحاضر إلى الماضي، معتمدا على ضمير الغائب في سرد الحدث أحيانا، إذ يقول: "ولدت كما قيل لي، قبل سنة الثلجة الكبيرة بعامين. كان الناس يؤرخون بالأحداث الكبيرة، وربما هم لا زالوا يفعلون حتى اليوم. كل ما كان قبل الحدث ينتسب

---

1) الموسى، ثمانون. ص١٩٤.

2) نفسه، ص٨٣.

3) نفسه، ص٨٦.

4) نفسه، ص٨٩.

5) إبراهيم الكوفحي، مرايا وظلال: قراءات ومراجعات نقدية. ص١٧٥، ٢٠٠٥م.

للماضي يستوي فيه البعد والقرب ـ فكلاهما منسي على أية حال ـ وكل ما بعده ينظر إليه كذلك، اللهم إلا إذا حدث حادث آخر، فيبدءون بهذا"(١).

نجد أن تكرار الفعل كان حاضرا في أغلب صفحات السيرة، لاعتماد السيرة عليه، ونجده كذلك يقدم الاستمرارية الآنية في العملية السردية، قائلا: "كما كان في المضافة، أيضا، حجر جرانيتي على شكل متوازي مستطيلات حفرت فيه على صفين متوازيين أربع عشرة حفرة تصلح للعبة يبدو أنها كانت معروفة في بلادنا منذ أيام الرومان على الأقل، ولا تزال تلعب حتى الآن وتسمى "المنقلة"(٢).

أما مركزية الحضور لديه، فإنه يعتمد على ضمير المتكلم كثيرا لكي لا تفقد سيرته ذلك، وهذا لا يمنع من حضور ضمير الجماعة في بعض الأحيان: "حملوا السيارة بأكياس القمح التي سيبيعها أبي في حيفا"(٣). وإن كان هذا يخفف من مركزية الحضور في السيرة لديه، كان يقوم برواية بعض المواقف والأحداث ويمزجها باللهجة العامية كثيرا، قائلا على لسان والدته: "... سوف أقطع قيد شفتك، السفلى بالمسلة وإلا فسوف تسقط كل أسنانك. هذا مرض أبو حافور، وشفيت أناس كثيرون منه، بإذن الله. لحم أسنانك أزرق وهو ميت وهذا علاجه"(٤).

وحول توظيفه لأسلوب الاستفهام والاستفهام الإنكاري، فإنه يوظفه أحيانا بالدهشة والاستغراب لبعض المواقف التي حصلت معه أو مع الآخر الجمعي، بطريقة فنية بلاغية معبرة، قائلا: "لماذا لا تخترقني الأنوار؟ هل لقصور في؟ أم لحاسة متمردة ترفض الخضوع

1) الطويل، مدارات الذاكرة، ص٩.

2) نفسه، ص١٢.

3) نفسه، ص١٩.

4) نفسه، ص٢١.

لأية قدرة مهما كانت إذا لم تبرر ذلك بوجود مادي ألمسه وأقتنع به؟ لا يتــساءل كل اللذين أعرفهم كما أفعل. هل لهذا السبب، هم يؤمنون؟ هل لأنهـــم أقل ذكاء، أم لأنهم أذكى وأحدّ فهما؟؟ من هو أو ما هو الله؟ لماذا ينتهي عصر المعجزات؟ "[١]. وهناك الكثير من هذا القبيل في نصوص سيرته الذاتية. مصورا به صراعه الداخلي والخارجي في أجمل الصور، تطرقنا له في الفصول السابقة: في طفولته؛ في التحاقه بالمدرسة؛ ومعاناته في ملازمة المرض لأصبعه، ومن ثم بتره بطريقة طريفة من قبل أصحابه في مختبر الجامعة[٢].

وفي استخدامه لأسلوب الوصف والتصوير، يسهب كثيرا وخاصة في وصف الأمكنة والطبيعة، مضفيا على سيرته الذاتية جمالا فنيا، إذ يتدخل عنصر الخيال في هذا الجانب من أجل استحضار الحدث وتصويره في أبهى الصور وأجملها، بالرغم من التحفظ الذي يبديه أغلب النقاد لهذا الجانب؟ وذلك لقربه من العناصر الفنية والأسلوبية للرواية والقصة. ومن الصور التي يمتح منها كثيرا ويطيل النظر فيها، تتمثل في قوله: "أما سفوح التل ومنحدراته فقد تركت نفسها لبيوت المدينة تتسلقها باتجاه القمة وتشبثت بها مخافة أن تجرفها أنهار السيول والتلال الصغيرة والشعاب النابعة من مكان ما عند اقدامه هادرة في كل الاتجاهات.... يمكن للذي يجلس على طرف التل، وكثيرا ما كان الناس يجلسون هناك في أمسيات الربيع الناعمة، أن يرى قرى الشمال تظهر وتختفي على مد النظر فوق تلك السهول والوهاد المتماوجة كقطع خشب طافية على قمم الموج وسفوحه في حركة عمودية أبدية دائبة، لم تتوقف منذ الأزل وليس يتوقع لها أن تتوقف حتى آخر الزمان"[٣].

1) الطويل، مدارات الذاكرة، ص٩٧.

2) للمزيد حول عملية بتر أصبعه، أنظر مدارات الذاكرة، ص١١٩.

3) نفسه، ص١١٠ـــ ١١١.

قدم الطويل سيرته الذاتية بأسلوب قصصي في أغلب الأحيان، مستحضرا الشخصيات كثيرا في الأساليب الحوارية التي كان يقدمها، وقد عمد كثيرا إلى استخدام أسلوب التحليل النفسي في تقديمه، ووصف كل شخصية وتحليلها بما يليق بها، أمثال: الزعبي وزوجته فصل وسالم العنبر وشخصيات أخرى مبثوثة في ثنايا سيرته الذاتية.

وفي تمثل اللغة في "**العودة إلى الهدأة**"، نجد عويس يستخدم ضمير المخاطب للإخبار عن أحداث سيرته الذاتية، قائلا: "والآن أعود إلى حيث بدأت رحلتي، إلى "دبين" وتحت ظل الهدأة لأدون ما علق بذاكرتي من أحداث، وأعطي رأيا شخصيا فيما حدث ويحدث على الساحة العربية"[1].

تجده منذ البدء يعلن عن الصراحة والوضوح والبساطة في استخدام اللغة: "لن ألجأ في كتابتي إلى اللغة المنمقة وقواعد التأليف السائدة، وسأبتعد عن أسلوب المبالغة والتلميع وإخفاء الحقائق؛ بل سأسرد الأحداث كما شاهدتها، وسأعرب عن مشاعري وأحاسيسي كما هي بعفوية ودون محاباة"[2].

أما استخدامه لأسلوب الوصف والتصوير فإننا نجده يسهب كثيرا فيه في بداية سيرته، من وصف للأمكنة والتضاريس، والتي تذكره بطفولته: "وهذه التضاريس لم تتغير كما تغيرت أنا، بل بقيت كما هي تصارع الزمن وتتحدى عوامل الطبيعة"[3].

1) عويس، سيرته الذاتية. ص١٤.

2) نفسه، ص٢٢.

3) نفسه، ص٢٤.

وعن استحضار الشخصيات المحورية لديه والذي يزيد من فنية السيرة، ويؤكد مركزية حضوره في السيرة، يقول: "ثلاثة كان لهم الفضل والأثر الكبير فـــي تربيتي: أخي الأكبر "إبراهيم" وأبي "أيوب" وأمي "شفيقة"[١].

ونلحظ لديه أسلوب التكرار المتمثل في الأحداث والوقائع السياسية التي حدثت منذ الحرب العالمية وحتى الوقت الحاضر، إذ يعرض لتلك الأحداث في بداية السيرة التي اعترت الأمة، ومن ثم يقدم في نهاية السيرة توصيات وبعض من الحلول لها، جراء هذه الأحداث التاريخية الهامة في تقرير المصير.

أما المجالي في "**رحلة العمر**" فهو يكتب سيرته رجوعا من الحاضر إلى الماضي مكثفا حضور الفعل الماضي في سيرته، إذ إن ضمير الفعل كان[٢]. قلما تخلو منه صفحة واحدة من سيرته الذاتية، وأغلب الأحيان يتكرر في كل فقرة وخاصة في بداية السيرة[٣].

ومن ثم نجده يستخدم الأسلوب الروائي في رواية بعض الأفكار المتواردة، لتزيد السيرة جمالا فنيا، كقوله: "وبالفعل هاجت دولتنا الصغيرة وماجت، وتقرر إجراء محاكمة لهذا المرتد، وأصدر قاضي القضاة أمرا بإعدامه شنقا حتى الموت وأعدت المقصلة التي صنعها البيطار أيضا في منجرة والده. ووقف الأفيوني عليها منتظرا تنفيذ الحكم، وسأله قاضي القضاة عن وصيته قبل أن يعدم، فصرخ قائلا: أنا بريء ولست مذنبا. وهنا تدخل الملك أحمد الجبور وأصدر عفوه الخاص عن الأفيوني"[٤].

وفي حكاية أخرى لافتة للنظر، والتغير الكبير فـــي مجرى الأحداث الذي شهده هــذا

---

1) عويس، سيرته الذاتية. ص٣٠.

2) بخصوص كثرة الاستخدام لهذا الفعل، أنظر سيرته الذاتية. ص٢٦ــ ٣٠.

3) نفسه، ص٢٥.

4) نفسه، ص٣٩.

العالم، يقول: "..... فهي تعرفي على الكهرباء عن قرب لأول مرة في حياتي: ففي عهد الطفولة كانت البيوت تضاء إما بالسرج وإما بلمبة نمرة ٢ أو نمرة ٤ وهي ذات فتيل متصل بحوض صغير من زيت الكاز... ولما حل الليل بقي مصباح الكهرباء مضاء ولم يكن لدينا خبرة كيف يتم إطفاؤه. ولما أعجزتنا الحيلة ــ وكان ضوءه مبهرا لا يمكننا من النوم ــ قام الزميل ممدوح الصرايرة، فصعد على كرسي، وستر الضوء بحذائه لتخف حدته... لكن الصباح حمل إلينا مفاجأة مضحكة إذ وجدنا أن المصباح قد أحرق حذاء زميلنا ممدوح، مما اضطرنا إلى جمع مبلغ من المال لنشتري ــ على عجل ــ حذاء له"[١].

وهناك سمة عامة نلفت النظر إليها وردت في أغلب السير، وهي استحضار الشخصيات الهامة[٢]. في السرد الذاتي، على الرغم من مركزية الحضور لأصحاب تلك السير، ولكن بهذا الاستحضار تزداد السيرة تأكيدا وحضورا جادا؛ ومن أجل إدارة عملية الحوار في السرد العام للأحداث المعاصرة.

أما حضور اللغة في "**أوراق الشتات**"، فإن رجا سمرين يكتب سيرته بلغة فصيحة منمقة، إذ إنه يختلف في الأسلوب اللغوي عن باقي السير في عملية السرد من الحاضر إلى الماضي، وتبدأ السيرة لديه بنقل الحدث الآني بوصف قريته، "قالونيا": "هي قرية قالونيا، وهي واحدة من ست وستين قرية تابعة للواء القدس الذي يضم بالإضافة إلى هذه القرى ثماني مستعمرات يهودية، وعشيرة بدوية واحدة"[٣]. ومن ثم تبدأ عملية السرد لديه بضمير الغائب والاعتماد على الآخر في تقريب الصورة في أحايين كثيرة، مما يخفف من مركزيـــة

---

1) عويس، سيرته الذاتية. ص٣٩ــ ٤٠.

2) أورد كثيرا من أسماء الشخصيات الهامة في سرده، انظر المصدر ذاته، ص: ٥٣ ــ ٥٤.

3) نفسه، ص١١.

الحضور لديه في بعض المواقف من بداية السيرة، قائلا: "وقد حدثني الوالد عن هذا الأمر بالذات، قائلا: لقد وسوست لي نفسي ذات يوم أن أدعوه للمنازلة، فحاول جاهدا أن يقنعني بعدم ضرورة ذلك تأدبا منه"[١].

بعد هذه المقدمات، يعاود الانتظام في سرد وقائع السيرة بالاعتماد على الفعل الماضي، قائلا: "لا أذكر كثيرا من أحداث الطفولة التي تنتهي بسن الرابعة، وكل ما أذكره أننا كنا نعيش في غرفة بالحارة الشرقية تسمى دار سمرين وهي بالقرب من دار صلاح"[٢]. ومن ثم يكشف لنا من خلال عملية السرد والاستحضار، عن معاناته الحسية والنفسية التي كانت تلازمه، بالقول: "وليت الأمر توقف عند الألم الحسي، ولكن تعداه إلى الألم النفسي"[٣]. إذ إن هذا ينبئ عن حالة الصراع الداخلي والخارجي التي كان يعيشها، ولم تكن لتفارقه هذه الحالة في كافة مقطوعاته السردية.

وفي أجواء السيرة، نلحظ لديه البوح عن مقدرته ومهارته الشعرية وهو في سن مبكرة، حينها كان عمره لا يتجاوز الخامسة عشر، عندما بدأ بنظم الشعر والتمثيل[٤].

ومن الأساليب المحورية التي استخدمها في سيرته، أسلوب الحوار والاستفهام؛ والاقتباس من القرآن الكريم أو التناص معه ليؤكد بهذه الأساليب مطالب عدة ومتنفسا له في عملية البوح وتأكيد الحدث، قائلا: "... قلت مستغربا مقالته هذه: هل في قرار عودة الإنسان إلى بلاده شيء سخيف؟! وأي حال هذا الذي أنا عليه؟! قال: أقول لك أخ ناصح أمين. إنك

---

1) سمرين، أوراق الشتات. ص٥٩.

2) نفسه، ص٧٥.

3) نفسه، ص٨٨.

4) أفصح عن هذه المواهب في المصدر ذاته، ص١٢٣، ١٢٤، ٣٣٠.

لم تفكر في المستقبل، ولا في كيفية مجابهته في فلسطين... "[١]. وفي استخدامه لأسلوب التناص، تمثل لديه، بالقول: "... وقد نمت فيها نوما عميقا بسبب الإرهاق حتى تكامل عدد الحجاج الزمـــلاء وتحركنا صـــوب الرياض عملا بقوله تعالى، "**ومن تعجل في يومين فلا إثم عليه**"[٢].

وفي استخدامه للتراث الشعبي من الأمثال نجده حاضرا لديه، بالقول: "قلت في نفسي: "عمر الشقي بقي" يا أبا نزار.... هذه هي المرة الخامسة التي تتعرض فيها لرصاص اليهود وقذائفهم"[٣].

ثالثا: الزمن

الزمن في السيرة الذاتية شأنه شأن الرواية، إذ "إن الموضوعية والتجرد قيمتان جماليتان ساميتان وينبغي على كاتب السيرة، شأنه شأن الروائي أن "يعرض" لا أن "يفرض" ويتحقق هذا الشبه بضمير المتكلم، "وكتابة السيرة الذاتية، والرواية بضمير المتكلم تبدأ من الحاضر، وترجع إلى الماضي، أمّا الرواية بضمير الغائب، فتنطلق من الماضي، لذلك فإن كاتب الرواية بضمير الغائب أقدر على إيهام القارئ بأن الأحداث ما زالت جارية، من كاتب السيرة الذي يتحدث في سيرته عن أحداث جرت وانتهت"[٤].

لهذا نجد أن كاتب السيرة الذاتية لا يستطيع الإفلات من هذا البعد بتاتا، وذلك لتعلق الأحداث والوقائع بعضهما ببعض؛ وارتباطهما بالإنسان ارتباطا وثيقا. إذ تكمن أهمية هذا

---

1) سمرين، أوراق الشتات. ص١٦٨ــ ١٦٩.

2) سورة البقرة آية ٢٠٣.

3) سمرين، أوراق الشتات. ص٣١٤.

4) تهاني شاكر، ص١٢٦.

الارتباط في تشكيل السيرة الذاتية. ونتيجة لهذا نجد أن "الزمن اللغوي: له أبعاد مكانية من قرب وبعد واستمرار وانقطاع، وله آلات قياسه الخاصة به وهي الصيغ والمركبات"[١]

إن الحياة ترتبط ارتباطا وثيقا بالزمن، والزمن نفسه هو الحياة في جميع مراحلها، والإنسان يعيش فيها ضمن منظومة متسلسلة في ترتيب زمني معين، مبرزا في كتابة السيرة الذاتية الخاصة به، أهم الأحداث التي عاشها وأثرت على تكوينه النفسي، سواء كانت حسنة أو سيئة، فتكتب بصدق وتجرد عن الأهواء الشخصية، إذ تنسج ثلاثية الزمن الوجود الإنساني وتشكل حياته، فالإنسان زمن يتشكل من ثلاثة أبعاد: اللحظة الآنية الحاضرة التي يعيشها ويمارس فعله فيها، وقد سبقتها لحظة ماضية تراكمت على الماضي الممتد عبر سنوات العمر السابقة، لتشكل وجود الإنسان وتؤثر في أفكاره ومشاعره فيتعامل مع لحظته الآنية الحاضرة وفق معطيات الماضي الممتد، حيث تدفع الذاكرة باستمرار الماضي باتجاه الحاضر لاستشراف المستقبل الآتي"[٢]

وفي تتبع البعد الزمني في سيرة سليمان موسى، "**ثمانون**" نلحظ تجلي هذا البعد في أغلب النصوص السردية لديه، مصورا معاناته الداخلية والخارجية من خلاله ومقسما الزمن السردي لديه إلى مجموعة من المراحل، يبدأه منذ الميلاد البيولوجي ومن ثم مرحلة الطفولة والشباب وانتهاء بمرحلة متقدمة من العمر، كما يقول الموسى.

والزمن الذي يستحضره، جاء به ليعبر عن حالته النفسية من القهر والعذاب، جاء على الأغلب ممزوجا بالمرارة والقسوة وشح الموارد: "هكذا كان أسلوب تدبير العيش للناس

1) مالك المطلبي، الزمن واللغة. ١٩٨٦، ص١٢.

2) مها القصراوي، الزمن في الرواية العربية. ٢٠٠٣، ص٢٦.

الفقراء من أمثالنا. ولم يكن ذلك بعيدا عن أسلوب حياة الناس الذين يملكون الأرض، فالكل يكد ويسعى لتأمين مئونة السنة"(١).

وعن معاناته وصراعه مع الأيام، نكشف عن الزمن النفسي وما كان يشعر به حين ذاك، قائلا: "هناك أمور تركت أثرها في نفسي من أحداث تلك الفترة. فقد حدث ذات يوم أن شخصا مجهولا أطلق النار من مسدسه على شخص آخر كان يجلس في مقهى قبالة المحل التجاري الذي أعمل فيه... "(٢)، "ومرت أيام وأيام. وفي ذات يوم فوجئت، كما فوجئ غيري من سكان يافا، بسيارات الشرطة وتطوف في الشوارع وتعلن منع التجول... وعندما عادت المدينة إلى الحركة بدت لي مدينة أخرى: مدينة حزينة واجمة هادئة أكثر مما يجب"؛ "وإن أنس لا أنس القنابل التي كان يفجرها اليهود ـ أو عملائهم ـ في أسواق الخضار، حيث كان الناس وتجار الخضار يزدحمون في صباح كل يوم لشراء ما يحتاجون إليه"(٣). بهذه المقاطع السردية المقرونة بزمن الاسترجاع والتي تهيمن على النص من خلال كثرة المشاهد المقدمة، عن طريق التناوب والتداخل أحيانا والتكرار مع بعض النتف السردية، يقدم بها الموسى أبعادا زمنية. تثري النص لديه وتكسبه سمات فنية مميزة في عملية الاستحضار السردي لتلك الأحوال المعيشية.

وعن استخدامه للزمن الحاضر (زمن الاسترجاع) والذي يعتبر امتدادا للماضي (زمن الأحداث)، يذكر حديثه الذهني الممتع ـ بالنسبة له ـ حول تأليفه للكتب وبعض الروايات آنذاك. نجد تداخلا للزمن في كافة أبعاده: فهذا الحاضر امتداد لذلك الماضي، إذ يقول: "أعود

---

1) الموسى، ثمانون. ص١٢.

2) نفسه، ص٥٠.

3) نفسه، ص٥١.

إلى المتع الذهنية التي أتاحتها لي الإقامة في يافا. كانت الكتب متوفرة وكثيرة، وأسعارها معقولة"[١].

وعن سنوات الصبر والأمل، يتحدث عن الجانب العملي لتلك السنوات الممزوج بالمشقة والمتاعب، لكنه يدخل في سرده الزمني مباشرة بعضا من الأحداث العالمية، ليكشف لنا حالة القلق وعدم الاستقرار آنذاك، بالقول: "عندما انتهى العام الدراسي سنة ١٩٤٠، كنت عقدت عزمي ألا أعود لمهنة التعليم. وبعد مدة قصيرة وجدت عملا بوظيفة محاسب في محل تجاري في إربد... وفي عام ١٩٤١ اقتربت الحرب العالمية من بلاد العرب... "[٢]. بهذه النتف السردية، يعمل على دمج الأزمنة المستذكرة مع الأحداث المعيشة لتلك الفترة الزمنية.

وفي الثلث الأخير من سيرته الذاتية، يبدأ حديثه السردي يأخذ منحى آخر مختلفا عن السابق، إذ يتجلى حضور الزمن من خلال تركيزه على شخصيته المحورية، قائلا: "وبينما أنا في حيرة من أمري، لا أدري ما أفعل، تلقيت نبأ ما كنت أحلم في ظروفي تلك أن أسمع مثله، ألا وهو نبأ تعييني موظفا في الإذاعة. بعث ذلك النبأ في نفسي ونفوس أفراد أسرتي الشعور بالسعادة، بعد كل ما عانينا في أثناء الشهر الأخير"[٣]. وبدأت الأمور تتغير وتتحسن الرؤى والانطلاق نحو الأفضل في كل شيء، إذ "كان انتقالي إلى دائرة المطبوعات والنشر منعطفا مهما في حياتي"[٤]. وهذا دليل على تطور المراحل الزمنية التي ذكرناها سابقا: زمن البدايات الأولى وما تتخلله من جلب الأحداث والوقائع فيما كان يروى له عن طريق الآخر؛

---

1) للمزيد أنظر سيرته الذاتية، ثمانون. ص٥٢ ــ ٥٩.

2) نفسه، ص٦٥ .

3) نفسه، ص٩٧.

4) نفسه، ص١١٧.

زمن الطفولة ومرحلة الشباب وما عاناه وعاصره من أحداث ووقائع كثيرة؛ ومن ثم زمن الرضا والقناعة وما آل إليه (الخلاص)،إذن "في سيرة الموسى تصوير للبؤس والانتصار عليه، وتصوير للجهل والخلاص منه، وتصوير للأمل والنجاح والاعتزاز به وهو في هذا كله يضع القارئ في سياق البوح، والإفضاء بالسر، وهذا فعل يجعل القارئ يصغي إلى ذات لا تحدث الآخرين فحسب، ولكنها تخاطب نفسها كذلك، والخطاب حين يكون على هذا النحو يدخل القارئ في علاقة نفسية ــ إنسانية مع النص لأنه يود الإصغاء إلى الآخرين الذين يملكون تجارب غير عادية... "[١].

وفي سيرة الطويل "**مدارات الذاكرة**"، يبدأ عامل الزمن في الظهور منذ البدء بإعلان تاريخ ميلاده، مؤرخا له تاريخا عاميا كان دارجا بين الناس، يختلف عن الميلاد البيولوجي، يقول: "ولدت، كما قيل لي، قبل سنة الثلجة الكبيرة بعامين كان الناس يؤرخون بالأحداث الكبيرة، ربما هم لا زالوا يفعلون حتى اليوم"[٢].

إن سيرته الذاتية في جزئيها "**مدارات الذاكرة**" وفي "**الطريق إلى عمان**"، تغطي فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية من أحداث ومشاهدات وحتى عام ١٩٩٤، ففي الجزء الأول انطلقت منذ بداية الطفولة لديه بدايات عام ١٩٣٥م وحتى التحاقه بوزارة عام ١٩٦٢م، في حين يغطي الجزء الثاني الحقبة الزمنية الواقعة بين عامي ١٩٦٢و ١٩٩٤.

وفي استحضار الطويل لتلك الذكريات السابقة، التي جاءت في جزأين منفصلين، يتبين لنا بأن لديه متعة في ذلك، وهذا ما ركز عليه ماي، بالقول: "يلتذ كاتب السيرة الذاتية أيما التذاذ بالتذكر وخاصة استحضار الذكريات البعيدة التي عوض أن تلقي عليها الشيخوخة

1) الزعبي، ثمانون: كثير من الرض. ٢٠٠٤.

2) الطويل، مدارات الذاكرة. ص٩ .

شيئا فشيئا سجف النسيان نجدها على عكس ذلك تزداد ألقا، نعني بذلك ذكريات الطفولة أو الشباب"[١].

من هنا، جاءت سيرته الذاتية في جزئها الأول مليئة بالأحداث، إذ إنها تغطي مرحلة هامة في كتابة السيرة الذاتية، الطفولة التي تسرد وفق تسلسل زمني، "صحيح أن الحركة الزمنية تتصاعد في الجزأين، ولكن الزمن في المدارات ظل أكثر حيوية وتشعبا وتدفقا، وصحيح أن ثمة فرقا بين الزمنين، زمن البحث عن الطريق على نحو مطلق، وزمن البحث عن عمان على وجه التحديد... [٢].

وفي سيرة المجالي "**رحلة العمر**" يبدأ البعد الزمني في بداية سرده الذاتي لميلاده البيولوجي، إذ يروي ذلك معتمدا على ما قيل له عن موعد ولادته، قائلا: "قيل لي في وقت لاحق إن ذلك اليوم من أيام شباط/ فبراير عام ١٩٢٦ كان يوما باردا، وكانت الكرك هادئة تحاول النهوض من ذلك الليل الطويل بثقل وتثاؤب"[٣]. إذ إنه يدمج تاريخ مولده بتاريخ وفاة والده، قائلا: "ومن المصادفات أن والدي توفي في نفس الشهر الذي ولدت فيه وهو شهر شباط (فبراير)، وبعد عشرين عاما من ولادتي رحل عن هذه الدنيا في ١٩٤٦/٢/١٥"[٤].

يعتمد المجالي في سرده الذاتي كثيرا على تصوير المشاهد والأحداث[٥]، وهذا الاستحضار يعتمد على جلب الزمنين الماضي والمستقبل. إذ يعتبران زمنين لا واقعيين كما عبر عنهما دارسو السيرة الذاتية، والكتابة عنهما هي خلق فقط، وهذا يبعد السيرة الذاتية عن

1) ماي، ص٥٦.

2) للمزيد أنظر خليل الشيخ، السيرة والمتخيل. ص٢٦٢ ــ ٢٦٨.

3) المجالي، رحلة العمر. ص٢٠.

4) نفسه، ص٢١.

5) للمزيد حول تلك المشاهد والأحداث، أنظر المصدر السابق. ص٧٤ ــ ٨٠ .

مسارها الزمني. وفي هذا الخصوص أعرب ماي في كتابه، "السيرة الذاتية" عن وجهة نظره الخاصة: بأن إخبار المرء عما شاهده (عمل الرحالة) مشاهدات؛ وإخبار المرء عما فعله (رجل السياسة) أفعال؛ وإخبار المرء عما كان عليه (عمل الأديب) أحوال، وقد اعتبرت المشاهدات والأفعال من قبل الدارسين من باب المذكرات؛ والأحوال من باب السيرة الذاتية..[١].

وفي "**العودة إلى الهدأة**" لوهدان عويس، تكون سيرته الذاتية قد شملت الفترة منذ عام ١٩٣١ وحتى وقت قريب من العصر الحاضر، قائلا: "منذ أن فتحت عيني على الحياة عام ١٩٣١ في قرية صغيرة من قرى "جبال عجلون" تدعى "دبين" إلى أن انتقلت إلى جرش محطتي الثانية حيث تلقيت علومي الابتدائية، ومنها إلى "إربد" لأكمل المرحلة الثانوية، ومنها إلى "بغداد" حيث أكملت المرحلة الجامعية"[٢].

من هذا المنطلق، نلحظ أن عويس منذ البدء، يعتمد الترتيب الزمني[٣]. الذي يغني السيرة الذاتية حضورا مميزا ويخرجها من التشويشات التي تعيق مسارها الزمني، إذ "تبدو "العودة إلى الهدأة" أكثر بساطة، والماضي المستعاد أكثر وضوحا، والمتلقي أدق تحديدا، والغاية أكثر بروزا"[٤].

وفي استكماله السردي للمراحل الأخرى من الترتيب الزمني تصاعديا، يقول: "وعودة إلى الأردن عام ١٩٥٢للعمل لدى وزارة الأشغال العامة؛ ثم إلى السجن بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٦١؛ فعودة للعمل لدى أمانة العاصمة؛ ثم إلى السجن عام ١٩٦٣؛ ثم الالتحاق للعمل مع

1) أنظر ماي، ص١٢٥ــ وما بعدها.

2) عويس، سيرته الذاتية. ص١٣.

3) للمزيد حول الترتيب الزمني، أنظر جورج ماي، السيرة الذاتية، ص٨١.

4) خليل الشيخ، ص٢٧٥.

شركة دار الهندسة عام ١٩٦٧؛ في لبنان واليمن والسعودية ونيجيريا والسودان وسوريا والعراق والعودة أخيرا بعد التقاعد في مطلع عام ٢٠٠١، إلى الاستقرار في الأردن"[١].

وعن الزمن الحاضر (الآني)، يبدأ به سرده الذاتي في كتابة سيرته الذاتية، قائلا: "هذا اليوم هو الجمعة الحادي والثلاثين من شهر كانون أول عام ١٩٩٩، نودع به عاما لنستقبل عاما آخر دورة من دورات الزمن تتكرر منذ ملايين السنين لا نعلم متى بدأت ولا نعلم متى تنتهي"[٢].

أما سيرة رجا سمرين "**أوراق الشتات**"، نلحظ اعتماده السردي على الزمن، وذلك عن طريق تأريخ الأحداث والمشاهدات بشكل ملفت للنظر، قائلا: "وقبل أن أسترسل في تسجيل أهم وقائع حياتي، وما صاحبها من أحداث وما تركته هذه الوقائع والأحداث من الانطباعات، أجدني ملزما بأن أمهد لذلك بنبذة موجزة عن جذور أسرتنا وأصولها، علّها تلقي بصيصا من الضوء على هذه الجذور التي ضربت بعمق في تراب فلسطين، قبل أن أستهل صارخا معلنا عن احتجاجي على القدوم إلى هذه الحياة في السابع من آذار ـ مارس ـ عام ١٩٢٩"[٣]. بهذا التقديم المباشر نلحظ حالته المأزومة استهلها على عكس السير السابقة في التقديم السردي.

وفي الثلث الأول من سيرته الذاتية، يستذكر كثيرا من المشاهدات والوقائع التي انطبعت في ذاكرته، ولم نلحظ لديه سردا ذاتيا آنيا، إذ إنه سرعان ما يعود إلى الماضي في أغلب مواطن سيرته مما يخلق تشويشا في سيره الذاتي من خلال الدمج ما بين الماضي

---

1) عويس، سيرته الذاتية. ص١٥.

2) نفسه، ص١٥.

3) سمرين، أوراق الشتات. ص٣٦.

والمستقبل، بدليل قوله: "في الأول من تشرين ثاني – نوفمبر – ١٩٣٩ عادت أسرتنا وعلى رأسها الوالد إلى قالونيا، وبعودتنا إليها التحقت بالصف الرابع الابتدائي بمدرسة البلدة التي كنت قد غادرتها قبل عامين"[1].

رابعا: المكان

يشكل المكان جزءا أساسيا هاما في كتابة السيرة الذاتية، وذلك لشدة ارتباط كاتب السيرة وحبه للأماكن المعيشية، فجاء وصف أصحاب تلك السير تفصيليا لتبيان مدى التأثر والتفاعل مع المكان، وبهذا نلحظ حضورا مميزا للمكان في تلك النصوص المعنية، وهذا الحضور يشكل أهمية كبرى في تحريك الأحداث والوقائع، مما يكسب شخصية كاتب السيرة الذاتية تنوعا وحضورا مميزا. وفي الوقت الذي يعطي بعض النقاد المكان بعدا كبيرا لأن بيت الإنسان – في نظرهم – امتداد لنفسه؛ فإذا وصفت البيت فقد وصفت الإنسان، نجد بعض النقاد الآخرين "يفرغونه من أية دلالة؛ فهو – عندهم – محض وجود موضوعي لذا لا ينبغي إسباغ دلالة ما عليه"[2].

فالمكان المتحدث عنه في عموم تلك السير محلي "الأردن"، وخاصة القرية وما تعنيه لأصحاب السير من تشكل النواة الأولى لديهم، من معاناة وفقر وقلة في الموارد، وقد شكل هذا ركنا أساسيا ومرتكزا لأصحاب السير للانطلاق من خلال القرية عربيا ودوليا، باستثناء اثنتين من السير توسعتا في الحديث عن مناطق أخرى من الوطن العربي: كسيرة وهدان عويس ورجا سمرين، وذلك نتيجة لظروف العمل التي شغلها أصحاب تلك السير في تلك المناطق.

---

1) المصدر السابق، ص١٢٣.

2) أحمد عوين، أبعاد المكان الفنية، ٢٠٠٤، ص٤٦.

وقد تمثل حضور المكان في "**ثمانون**" الموسى، حضورا مميزا ممزوجا بالحنين والشوق لكافة الأمكنة، معبرا عن هذا، بالقول: "... إلى البيت الذي نشأ فيه، وساحة الدار، وبئر الماء، وقنّ الدجاج، وشجرة التين وأشجار الصبار العالية.."[١]. لكن نجده يحلم بتغيير الواقع الممزوج بالمرارة والشقاء، متطلعا إلى الأفضل في الخروج من الفضاء الضيق إلى المكان الأوسع، تمثل هذا في القرية، من شح في الإمكانات وقلة في الموارد، إذ إن "كل مكان مغلق فإنه يحدّ من مقدرة الإنسان على الإبداع إذا ظل مقيدا بحدوده الجغرافية الضيقة"[٢].

وعن الأماكن التي كانت تقيم بها عائلته في سابق الزمن، يذكر لنا مدينة عولم، مستحضرا اسم الكنيسة التي كانت موجودة في نفس المدينة، ليضفي على المكان أهمية تكمن في عراقته، قائلا: "تعطينا العريضة معلومات عن الأسرة وإقامتها في عولم، فهي تذكر أن أبناء الأسرة كانوا يقيمون فيها "منذ القديم من زمان آبائنا وأجدادنا"... وأن القرية كانت تضم كنيسة باسم القديس جاورجيوس"[٣].

وأما في حديثه عن أماكن الإقامة، نجده يسهب في سرده الذاتي عن إقامته في قرية الرفيد ومستحضرا تنوع إقامته في أماكن أخرى، منها بلدة الحصن، يوم غادر الرفيد في عام ١٩٣٠ لإكمال دراسته فيها، معربا عن حبه ورضاه لهذا المكان الذي جمعه بأقربائه وأصدقائه؛ ودراسته هناك: "كانت بلدة الحصن تضم مدرسة ابتدائية كاملة للحكومة، وكان التعلم في هذه المدرسة أكثر يسرا بالنسبة لي من التعلم في مدرسة إربد الحكومية، وسبب

1) الموسى، ثمانون، ص٥.

2) تهاني شاكر، ص١٣٨.

3) الموسى، ثمانون. ص٢٤.

ذلك يعود إلى ارتباط أسرتنا ببعض الأسر في الحصن عن طريق القربى والنسب"[١]. لكن الحال بقي على ما هو عليه ولم يتغير، وإن بدت هناك تلميحات لتغير الحال، قائلا: "أمضيت في قرية الحصن سنوات عادية، لا أستطيع أن أقول أنها كانت سنوات سعيدة. كنت أعاني من الشعور بالغربة والوحدة، والشعور أحيانا بالبؤس والتعاسة"[٢].

وفي انتقاله من السرد الداخلي إلى الخارجي: الفضاء الأوسع، يتحدث حديثا إيجابيا بعد أن سدت في وجهه كافة السبل على الصعيد الداخلي، وكان ذلك يوم أن قرر الذهاب إلى حيفا، التي غيرت مجرى الأحداث لديه: "كان ذلك القرار من أهم القرارات التي اتخذتها وأعتقد أنه أثر تأثيرا حاسما على مجرى حياتي، وأسهم في تبديل مسارها"[٣]. ولكن سرعان ما يقرر العودة إلى القرية: "ربما شعرت أن يافا لم يكن بمقدورها أن تعطيني أكثر مما حصلت عليه. ثم لا بد أنني شعرت أن واجبي نحو والدتي وأختي يحتم علي أن أعود"[٤]. بعد عودته يبدأ المشوار لديه منطلقا من عمان: "شددت الرحال إلى عمان كي أبحث عن مجال لطبع كتابي عن الشريف حسين، من جهة، ولكي أبحث عن عمل من جهة ثانية"[٥].

من خلال عملية التنقل المكاني التي حدثت لديه، نكتشف بأن الأمور أخذت في التغير التدريجي نحو الإيجاب في تحقيق الطموحات والرغبات، التي ابتدأت من عمان وشكلت له انطلاقة واسعة الآفاق، إذ تم التعرف على شخصيات جديدة وتمت بلورة الأمور كافة على الصعيد العملي ولاقى دعما كثيرا، تحقيقا لطموحه ورغباته، فيما يخص جانب تأليف الكتب.

1) الموسى، ثمانون، ص٣٤ .

2) نفسه، ص٣٤.

3) نفسه، ص٤٦.

4) نفسه، ص٦٠.

5) نفسه، ص٦١.

أما حضور المكان في "مدارات الذاكرة" "وفي الطريق إلى عمان" فإن الطويل يستعيد الماضي في توظيف المكان معتزا ومفتخرا بشموخه وروعته، ونجد تشابها كبيرا في هـذا التعبير لدى تهاني شاكر في دراستها للمكان وحضوره في السيرة الذاتية(١).

وعن تنقله لأكثر من مكان مع والده أثناء طفولته، يحدثنا عن زيارته الأولى لمدينـة حيفا، مبتهجا لهذه الزيارة كثيرا أثناء حديثه مع أقرانه، بالقول: "لم يكن يمضي النهار حتى كان كل أولاد القرية يعرفون بسفري إلى حيفا"(٢). وهو بهذا الاستحضار، يفصح عن أهمية المكان والتنقل في فضائه، ليزيد الشخصية خبرة واطلاعا واسع، قائلا: "بقيت حيفا رمـزا لكل ما أحبه وأعشقه. وبيوتها وبحرها، ورجالها من الزنانية والزعبية وأخي"(٣).

ينتقل الطويل إلى أكثر من فضاء مكاني، يوم أن قرر الذهاب إلى سحم مـن أجـل الدراسة هناك، وذلك للخروج من النطاق الضيق الذي كان يعيشه في حكما: "وقفت وحيـدا أحاول أن أكتشف في كل السنوات السابقة أو اللاحقة، ما يمكن أن يكون عونا لي على مـا سوف أواجهه وحيدا في هذه القرية الراكدة، الملتصقة بأديم الأرض كأي كهف من كهوفها. لم أكتشف شيئا"(٤).

وعودة إلى محل إقامته في سحم، التي عزم عليها سابقا وشكلت له بداية الطريق، إذ لم يكن سعيدا بها كما يجب، قائلا: "لم تكن الإقامة في سحم بين أقارب وأخوال أبي سهلة أو

---

1) للمزيد بهذا الخصوص أنظر تهاني شاكر، ص١٣٦.

2) الطويل، مدارات الذاكرة. ص١٨.

3) نفسه، ص٣٦.

4) نفسه، ص٦٤ـ ٦٥.

مريحة. فقد كانت تعني عبئا إضافيا عليهم يحملونه ليل نهار وشهرا بعد شهر دون أن تلوح في الأفق نهاية للطريق، كما لو كان قدرهم"(١).

وللخروج من هذه الحالة النفسية، قرر أن يلجأ إلى الدراسة علها تكون المنقذ الوحيد للخروج من تلك الأجواء الضيقة: "في ذلك العام جلسنا للمترك الابتدائي في مدرسة إربد الثانوية. لا أعرف كيف كان ترتيبي في نتائج المتقدمين في المحافظة ولكن أسمي ظهر في قوائم المقبولين في الصف الأول ثانوي حسب النظام القديم في مدرسة إربد الثانوية"(٢). وفي هذا الانتقال المكاني، بدأت الأمور تتحسن تدريجيا أفضل من السابق، قائلا: "لإربد شخصية خاصة بها ما يكاد المرء يفد إليها حتى تتناوله في جهد واضح لإعادة خلقه بما يتناسب مع قيمها وأخلاقها وحركة تلّها في النفوس، فلا تمضي فترة صغيرة على مقامه فيها حتى يتحدث لهجتها ويفرح بما تقدمه من فرص للفرح، ويتطلع لما تحمله على البعد من أحلام لساكنيها. ويقال بأن المدينة تتدخل حتى في شكل الجسم الذي يكون في الغالب قصيرا ممتلئا مسكونا بروح طيبة وسريرة نظيفة"(٣).

وفي هذا الانتقال من مكان إلى آخر، تتضح الرؤى لديه، بأن الأمور أصبحت أفضل من سابقها بكثير، وذلك بالخلاص من الواقع السابق والمؤلم في نفس الوقت: "مرة واحدة فقد انفتح ذلك النفق فرأيتني أنزلق على جدرانه المستديرة باتجاه الأسفل، إربد، عمان، ثم انعطافات كثيرة وحادة، وارتسام أسماء متداخلة حروفها تتفجر وتتلاشى كبقع نور مما يراه

---

1) الطويل، أوراق سفير. ص٩٩.

2) نفسه، ص١٠٤ـ ١٠٥.

3) نفسه، ص١١١.

المحموم بالنوم أو بالحمى قبل غيابه عن الوعي. عبثا حاولت أن أستطلع الأسماء. عبثا حاولت أن أرى ذلك النفق مرة أخرى"(١).

من خلال هذا التقديم وتأكيدا لما سبق ذكره، نلحظ في وضوح الرؤى أكثر من السابق، إذ المشاهدات والوقائع كثيرة جدا، أفادته في التحرك والانطلاق نحو الأمام، عبر فضاء مكاني محدد لتلك الفترة نوعا ما(٢).

وفي استحضار الطويل لبعض الأمكنة الخارجية، ليدل به على أهمية الحدث ويزيد السيرة حضورا هاما، يستذكر: "المظاهرات التي حدثت في المغرب ١٩٦٥ والثورة الجزائرية في سرده الذاتي"(٣). ذاكرا حديثا عاما لتلك الأحداث. وفي انتقاله إلى المكان الخارجي الأوسع رحابة، في التعبير عن وجهة النظر الخاصة به، ينطلق بالسرد الذاتي في أيامه الأولى أثناء دراسته الجامعية من مدينة دمشق، قائلا: "اكتشفت كما فعل الجميع من قبلي، أن المرء لا يعيش بمفرده في دمشق. صار واضحا في الحال أننا سوف نقود حياة جماعية يكون فيها الواحد منا جزءا من مجموع..."(٤).

ومن ثم يعود للحديث السردي عن طريق استحضار المكان الخاص بالجانب العملي، وذلك يوم أن تم تعيينه معلما في نابلس وجنين، حيث ذكر حديثا عابرا عن هذه الأمكنة، لكنه سرعان ما يعاود الرجوع إلى المكان المحلي، يوم أعلنت الحكومة الأردنية سنة ١٩٦٢ عن اختيار عدد من الملحقين السياسيين لتعيينهم في وزارة الخارجية، وهو بهذا الانطلاق المكاني الذي ينهي فيه الجزء الأول من سيرته، يعلن عن بدء مرحلة مهمة من حياته

---

1) الطويل، أوراق سفير. ص١١٩.

2) نفسه، ص١٢١ ــ ١٤٠.

3) أنظر سيرته الذاتية، مدارات الذاكرة. ص١٣٤، ١٦٠.

4) نفسه، ص١٩٤.

الدبلوماسية، منطلقا إلى جوانب أخرى عبر هذا الفضاء. ليبدأ الجزء الآخر من سيرته الذاتية، "**في الطريق إلى عمان**" في حضور المكان لأغلب مقطوعاته السردية متناولا الفضاء الخارجي، لكنه يختم في النهاية من السيرة بالعودة إلى الفضاء الداخلي، نلحظ هذا من ثنايا العنوان لديه.

وفي مقدمة السيرة التي يبدأها منطلقا من مبنى وزارة الخارجية، يقول: "إلى هذا المبنى الرخامي المكون من أربعة طوابق كنا نعود من الخارج ومنه ننطلق، وبه نتصل يوميا أينما كنا... لقد كان بؤرة الضوء التي لا تغيب تفاصيلها عنّا في أية لحظة أينما كنّا"(١).

من خلال هذه التلميحات، يلتزم الطويل منذ البدء بالسرد المكاني، معلنا عن محتوى وطبيعة السرد العام في هذا الاستهلال، ومشيرا بوضوح "إلى"، المكان الذي سوف ينطلق منه ويعود إليه، مجيبا عن ذلك في عنوان سيرته الذاتية، "في الطريق إلى عمان".

بعد هذا التقديم العام، ينتقل الطويل في السرد إلى الفضاء الخارجي المفصل، متحدثا عن زيارته الأولى والثانية إلى العراق(٢). للمشاركة في مؤتمر وزراء الخارجية العرب، وكان عضوا في الوفد الأردني. لم نلحظ سردا ذاتيا في هذا الاستحضار، بل نجده يقدم هذا ليدل به على الحال الذي بلغه، وهذا يقود إلى ربط الأحداث معا للخروج إلى فضاء مكاني أوسع، يستهله بهذا التقديم الأسلوبي.

وبناء على ذلك فإن الكاتب، يصف طبيعة المكان بعد أن تم تعيينه سفيرا في العراق وصفا دقيقا: "وفي بغداد لم تكن ثمة فوارق، بل إنني أحسست عند دخولي المدينة أنني لا أفد

1) الطويل، أوراق سفير، ص١٥.

2) نفسه، ص٣٦ ــ ٥٤.

إليها بل أعود. أن ثمة شيئا ما في الجوار يخصني: ظلا ما تحت نخلة؛ وجها يرحب بي عرفته من قبل؛ امرأة تعبر الشارع واثقة الخطوة حاملة في داخلها كل تلك الاهتمامات التي أعرف الكثير منها؛ طفلا يلعب على قارعة طريق ترابية حافي القدمين"(١).

بهذا الاستحضار الحسي يستعيد الكاتب ذاكرته السابقة أيام الطفولة التي عاشها في البارحة، مشبها هذا الواقع (الحاضر) بذلك (الماضي) الذي أصبح له ذكرى. نلحظ في ذلك فن السرد بربط الحاضر بالماضي، ضمن فوارق زمنية في هذا الاستحضار السردي.

وفي حديثه عن مكان آخر من الفضاء الخارجي، عندما عيّن سفيرا في موسكو، يقول: "في مثل هذه الخلفية المعرفية الأدبية والسياسية والتاريخية وصلت إلى موسكو أصطحب إليها زوجتي وأولادي لنجد أنفسنا وسط مجموعة عربية من الزملاء في السفارة والسفراء والدبلوماسيين العرب يستقبلوننا في المطار، ويحيطوننا منذ اليوم الأول بالرعاية والحب"(٢).

في هذا المكان، نجد أن طبيعة السرد تنبئ عن السعادة والراحة، فقد أعطي الحرية الكاملة ولاقى طمأنينة في ذلك البلد، معبرا عنه بالقول: "لقد كنت سعيدا، فيما يخص تحركي في موسكو أو خارجها، فهي مدينة آمنة، أو هكذا كانت آنذاك، غنية بكل ما يشبع الروح. وكان يعجبني أن أكون تحت المراقبة التي تستهدف المحافظة على أمني الشخصي"(٣).

وفي نهاية السيرة، يخصص الحديث بالعودة إلى الفضاء الداخلي، عمان: "وأخليت المكان، عدت إلى المركز، ولكن بعد أن كبرت ست سنوات وكذلك أولادي. وكان علي في

---

1) الطويل، أوراق سفير. ص١٨٤.

2) نفسه، ص١٨٤.

3) نفسه، ص: ٢٨٧.

نهاية هذه السنوات الست أن أفترق مع ابنتي لبنا التي كانت تدرس الفن في معهـد سـترو غونوفسكي في موسكو، ومع ابني عدي، قبل ذلك... كان هذا الجانب من الحركـة باتجـاه المركز مشحونا بالعواطف شعرت بها تمسك بخناقي فتمنع عني الهواء"[1]. من خلال هـذا التكرار الحسي لطبيعة السارد، نجد أنه يستعيد جزءا هاما من الماضي، تلك الحالة التي كان يشعر بها سابقا، المرارة والقسوة من تلك الأيام الماضية، لعل هذا ينبئ عن النهايات وشعور الكاتب الداخلي بطول العمر والقرب من دنو الأجل. ولكن سرعان ما يتم تعيينه سفيرا فـي الباكستان: "لم يكن الانتقال لباكستان سهلا. وقد تأجل سفري مرة بعد أخرى"[2].

وفي حديثه السردي عن المكان الجديد، واجه فيه صعوبات بالغة في تقريب وجهات النظر الخاصة بسبب موقف الأردن من الحرب العراقية الكويتية؛ ثم بسبب عدم اشـتراكها مع الحلف الثلاثيني... [3]. ولكنه تغلب على كافة الصعوبات والعقبات التي أحاطـت بـه، وعادت الأمور كما أريد لها.

وفي العودة إلى عمان لا إلى المركز، يعود بنا إلى البدايات الأولى من سيرته، يـوم كان يخلو مع نفسه متحدثا عن الانطلاقة والطموحات الجادة، قائلا: "بل عدت إلى عمان التي تعلمت أن أحبها إلى زاوية فيها تكون منطلقي نحو عالم جديد خالد أتحرك فيه كما تتحـرك جذور الأشجار الوارفة تعطي لفضائي خضرة دائمة وظلالا، وتسهم في تنقية الهواء حولي من كل ما علق بي من غبار الطريق عبر المفاوز التي اعترضتني إليها"[4]. هذه الشخصية

1) الطويل، أوراق سفير، ص٣٢٧.

2) نفسه، ص٣٣٤.

3) نفسه، ص٣٣٧ ـ ٣٨٢.

4) نفسه، ص٣٨٤.

المتغيرة الطباع، أوجد لها الطويل تطويعا قادها بخطى ثابتة وواعية نحو الاتجاه الصحيح والاختيار الأفضل، نحو الطريق إلى عمان.

وفي سيرة المجالي "**رحلة العمر**"، نجد أنه منذ البدء في سرده السيري يعطي المكان أولوية وأهمية بالغة: "هل هو شيء غريب، أو ربما يوحي بالغرابة، أن يكون المرء مجاليا كركيا، وفي سني وظروفي، ووالدته شامية؟"(١).

من هنا، نجده يقدم وصفا لحدود الفضاء المكاني الداخلي، مشيرا فيه إلى "مطارح الطفولة"، في سكنه مع أشقائه في غرفة واحدة، قائلا: "ولعل أكثر ما رسخ في ذهني من تلك الأيام الطيبة الجميلة، تلك الطبقة السميكة من الدخان الأسود ترتفع أولا فوق المدفأة ثم لا تلبث أن تمتد على ارتفاع متر أو أكثر بقليل، وتشكل طبقة كطبقات الغيم التي نراها اليوم ونحن ننظر من الطائرة على ارتفاع عشرة آلاف قدم"(٢).

في هذه المقدمات الاستهلالية، نجده يخرج من نطاقه الضيق إلى نطاق آخر أوسع رحابة، ومن خلال هذا نكتشف أن المكان يكبر ويتسع مع تطور الأيام والأحداث، قائلا: "كانت الرحلة باتجاه السلط أول دروس حياتي في تعلم التأمل الذي أتاحه لي السير البطيء وقلة الضوضاء، وفرصة الخلو بالنفس، والمدى المترامي من مناظر الطبيعة المتنوعة، وكل ذلك يشكل استعدادا لوضوح الرؤية فيما بعد"(٣).

وفي انتقاله إلى الفضاء الخارجي، كانت الانطلاقة قد بدأت لديه من دمشق، فقد شكلت لديه كثيرا من الأفكار والرؤى العميقة آنذاك، قائلا: "... ورجعت إلى دمشق أحمل

---

1) المجالي، رحلة العمر. ص١٥.

2) نفسه، ص٢٦.

3) نفسه، ص٤١.

شهادة بعمر جديد هو سبعة عشر عاما، وقبلت طالبا في معهد الطب العربي بالجامعة السورية خلال شهر"(١).

من خلال ما تقدم، نلحظ المجالي يستحضر مجموعة من الأمكنة الطبيعية منوعا في حضور الفضاء المكاني بشكل عام، وهذا عائد نتيجة لطبيعة السرد المنوع من المشاهد والوقائع، وهو بهذا يستحضر مقطوعات يبدأها ثم ينتهي بها في الحال، ولم يكن بها امتداد متسلسل، كما بدا ذلك من خلال العناوين المطروحة في ثنايا السيرة.

وفي سيرة عويس "**العودة إلى الهدأة**"، نكتشف استحضاره للبعد المكاني من خلال العنوان المطروح، ويتشكل المكان لديه من مجموعة من اللوحات التصويرية التي يستحضرها من الواقع، ويقدم هذا التشكيل إيقاعا حركيا سمته العامة الدهشة والتدفق العاطفي أحيانا.

يأخذ المكان لديه صورة الحدث، ويتداخل المكان تداخلا يصعب فك اشتباكه، قائلا: "اخترت هذا المكان للكتابة لكون الطبيعة حولي والتضاريس التي أراها أمامي تذكرني بطفولتي وربيع عمري"(٢). وفي هذا يقدم وصفا متعددا للمناطق المحيطة بقريته دبين، : "خلفي ارى جبل الأقرع" و "وهذه غابة الدلاعي" و "على يساري أرى غابة الديسي... "(٣). من خلال هذا الاستحضار المكاني المتعدد، فإنه يجمل المكان ويوليه أهمية وعراقة، لإضفاء تميز على سيرته الذاتية وحضور شخصي ذات أبعاد عميقة الدلالة: "دبين موقع أثري قديم منسي، قيل أن تاريخها يرجع إلى ما قبل الميلاد"(٤).

---

1)المجالي، رحلة العمر. ص٥٧.

2) عويس، سيرته الذاتية. ص٢٣.

3) نفسه، ص٢٥.

4) نفسه، ص٢٦.

ثمة عنصر بارز في سيرة عويس، يتمثل في إلحاحه على العنصر المكاني المسهب، وهو أمر مفهوم إن نحن فهمنا هذا الحس العميق الذي يعيده إلى أمكنة طفولته الأولى ليكتب سيرته ولذا فقد استأثرت الأمكنة باهتمامه، فألح عن وصفها، والحديث عنها والمزج بينها وبين حالات متباينة من مشاعره الآنية والمسترجعة على حدّ سواء.

ومن ثم نجده ينتقل من مكان إلى آخر، ضمن الفضاء الداخلي من سرده الذاتي، إذ يبدأ من المدرسة الابتدائية في جرش: "كانت مدينة جرش عام ١٩٣٩، سنة التحاقي بالمدرسة، تحتل رقعة صغيرة تقع إلى الشمال الشرقي من الآثار الرومانية، يفصلها عن الآثار واد أخضر يغذى بالمياه من "عين القيروان"[١]. ومن ثم ينتقل إلى الدراسة في إربد: "كانت هذه هي المرة الثانية التي أرى فيها "إربد". ففي المرة الأولى عام ١٩٤٤ كنت برفقة والدي، حيث ذهبنا من دبين إلى إربد مشيا على الأقدام لبيع زوج من البقر في سوق الحلال في إربد... وقد مررنا في طريقنا على النعيمة..." [٢].

وأما حديثه السردي الخاص بالفضاء الخارجي، ينطلق فيه من بداية دراسته في بغداد، متماثلا في ذلك مع المجالي في انطلاقته من دمشق، قائلا: "غادرنا عمان الساعة الثالثة بعد الظهر ووصلنا "محطة الانتشفور" قبل منتصف الليل بقليل، واضطررنا للمبيت هناك على الكراسي في مقهى على الطريق.... بغداد مدينة عظيمة ذات تاريخ مجيد. فأينما ذهبت تجد معالم بارزة لهذا التاريخ. فهناك نهر "دجلة" الخالد الذي يخترق بغداد من الشمال إلى الجنوب...." [٣].

1) عويس، سيرته الذاتية، ص٤١.

2) نفسه، ص٥٧ـ٥٨.

3) نفسه، ص٨٠.

وبعد هذا الانتقال، يعود إلى الفضاء الداخلي، متحدثا عن الجانب العملي مع وزارة الأشغال العامة، ومن ثم ينتقل إلى مشهد آخر من السرد: الانتماء الحزبي والعمل السياسي، قائلا: "عدت إلى الأردن في صيف عام ١٩٥٢ كما ذكرت سابقا وعملت مهندسا لدى وزارة الأشغال العامة، تعرفت على "عبدالله الريماوي" و "منيف الزاز" من قيادي البعث وكذلك على "أمين شقير" و "راضي الشخشير" و "حمدي الساكت" وآخرين..." [١]. بعد هذا الانتماء يتم سجنه ويسهب كثيرا في سرده عن هذا الفضاء المغلق ـ السجن ـ وتبدأ المعاناة لديه مجددا، معبرا عن ذلك، بالقول: "مخفر "جسر المهاجرين" في عمان كان المحطة الأولى في رحلة المعاناة التي دامت في المرة الأولى لاعتقالي ثلاثا وثلاثين شهرا... في المخفر قسم يدعى "النظارة"، حيث يودع المتهم أو المجرم ريثما يجري التدقيق معه ويحال إلى المحكمة. أودعت في إحدى غرف النظارة وهي حجرة صغيرة فيها مقعد من الخشب المتآكل، وجدرانها وأرضيتها ملطخة بالأوساخ والبصاق، وتنبعث من المرحاض روائح تزكم الأنوف. وللغرفة باب من القضبان الحديدية" [٢]. وفي استطراده السردي، الخاص في استحضار الأمكنة التي سجن فيها وعانى منها كثيرا، نجد أنه يركز على ذكرها في سرده الذاتي، مصورا تلك الفترة التي قضاها هناك، بأنها مؤلمة جدا: "الحياة في الزنزانة حياة خمول جسدي عام، يتحول بعد حين إلى خمول فكري ثم إلى خمول حسي، ويصبح الإنسان كتلة بليدة لكائن حي. وأما الأمكنة التي سجن فيها نذكر منها: "سجن المهاجرين" و "زنازين جبل الهاشمي" و "السجن المركزي" و "وسجن الجفر" [٣].

1) عويس، سيرته الذاتية. ص٨٠.

2) نفسه، ص٩٣.

3) نفسه، ص٩٣ ــ ١١٦.

وفي العودة ثانية إلى الفضاء الخارجي، يستذكر تلك الأيام التي قضاها في الـيمن، وهناك يتعرف على أمكنة جديدة أثارت في نفسه الدهشة والاستغراب: "سافرت إلى عـدن عام ١٩٦٧ برفقة زميل لي هو المهندس مروان مظهر... "[1].

وفي السعودية يكلف بمجموعة من المشاريع الهامة، وفي هذا المكان يتعـرف إلـى أناس جدد ومفاهيم كانت سائدة لدى المجتمع السعودي في تلك الفترة[2].

أما في لبنان، نجده يميز ويغاير في عملية الاستحضار السردي، وهذا عائد لطبيعـة المكان هناك، قائلا: "هذا الجو الذي يطلق طاقات الإنسان من عقالها!! روحا وعقلا وجسدا. فلا رقيب على ما تقول أو تعتقد أو تأكل أو تشرب أو تلبس. ولا خوف مـن محظـورات فكرية أو سياسية أو اجتماعية. ولمثل هذا الجو أثره على الصحة النفسية والجسدية للإنسان. كما أن العقل يصبح أكثر فاعلية وإبداعا، والروح أكثر توهجا"[3].

وبعد ذكره لتلك الأمكنة، ينتقل في الحديث عن الجانب العملي في الخلـيج العربـي ونيجيريا، ويذكر حديثا عابرا لتلك الأمكنة، ولم نلحظ لديه سردا يوجب الذكر باستثناء بعضا من الجوانب العملية هناك، ونتفا سردية لطبيعة المكان المدهش وتصرفات فرديـة غريبـة شاهدها في نيجيريا.

وبعد ذكره لهذه الفضاءات المكانية، يختم سرده الذاتي للمكان بالعودة إلـى الـداخل الذي انطلق من خلاله، وفي هذه العودة، تتشابه سيرته مع سيرة فالح الطويل، الجزء الثاني "في الطريق إلى عمان". متحدثا عن ذلك الرجوع، بالقول: "أعـود ثانيـة إلـى "الهـدأة"،

---

1) عويس، سيرته الذاتية. ص١٤١.

2) للتعرف إلى تلك المفاهيم أنظر المصدر ذاته، ص١٦٣ ـــ ١٦٦.

3) نفسه، ص١٦٨.

أستعرض الذكريات وأمرُ على الأحداث التي شاهدتها، والمواقف والظروف التي عشتها وعايشتها، بهدف تحليلها وتقييمها... "[١].

وأما حضور البعد المكاني في "أوراق الشتات"، فبدأ بالإشارة لقريته التي عاش فيها: "هي قرية قالونيا، وهي واحدة من ست وستين قرية تابعة للواء القدس الذي يضم بالإضافة إلى هذه القرى ثماني مستعمرات يهودية، وعشيرة بدوية واحدة"[٢]. ويدل اسم الإشارة في تصريح سمرين، دلالة واضحة وأكيدة على المكان في عملية السرد الذاتي. متخذا منه جزءا أساسيا في صياغة سيرته الذاتية، ومحاولا في ذلك إعادة خلق المكان من جديد، عن طريق تقديمه للوصف المكاني التفصيلي، "في قريتنا هذه، وفي الأراضي التابعة لها والتي تبلغ مساحتها (٤٨٤٤) دونما عدد من عيون المياه العذبة التي كان يستقي منها أهل البلد... "[٣].

ومن خلال سرده الذاتي في تصوير الحدث، يعتمد على المكان في جلب الصورة وتقريبها إلى الأذهان، قائلا: "بدأت أسرة محمد سمرين الصغيرة مسيرتها مع الحياة في قالونيا. وكان أول ما فكر فيه رب الأسرة بعد أن استقر به المقام في بلدته الأصلية، هو البحث عن طريقة يستخلص بها أرضه من قبضة ابن عمه ذيب سمرين، الذي تسبب في تشريد والده عبدالله من بلده"[٤]. يعتمد هنا على الآخر في تقريب الصورة الواقعية للمكان.

وفي حديثه السردي للفضاء الخارجي الذي يبدأه من لبنان، قائلا: "كان أول شيء فكر فيه الوالد هو إلحاقنا بمدرسة الذوق"[٥]. يسهب في حديثه أثناء تواجده في لبنان عن

1) عويس، سيرته الذاتية. ص٢١٢.

2) سمرين، أوراق الشتات. ص١١.

3) لمعرفة العيون وأسمائها بشكل مفصل، أنظر المصدر ذاته ص١٢ وما بعدها.

4) سمرين، أوراق الشتات. ص٧١.

5) نفسه، ص١١٤.

أمور سطحية منها: معاناته من بعض حالات مرضية، كالندبة التي ظهرت في خده؛ وإصابة شقيقه غالب بمرض الحمى؛ وعن غرقه أثناء قيامه في السباحة. وبعد هذا المكوث المحدود، يقرر المفتي مغادرة لبنان متوجها إلى برلين، وتعود عائلته ثانية إلى قرية قالونيا: "في الأول من تشرين الثاني ــ نوفمبر ــ سنة ١٩٣٩ عادت أسرتنا وعلى رأسها الوالد إلى قالونيا، وبعودتنا إليها التحقت بالصف الرابع الابتدائي بمدرسة البلدة التي كنت قد غادرتها قبل عامين"[١].

وأثناء إقامته في مصر، يذكر أن هذه الإقامة قد أكسبته التعرف على أمور كثيرة وأكمل دراسته التي كان يحلم بها ومن ثم تزوج هناك، قائلا: "فركت عيني اللتين تسمرتا فوق اسمي الذي يتوسط الناجحين... وقلت في نفسي: هل أصبحت حقا طالبا جامعيا؟ إلى عهد قريب لم يكن ذلك بالنسبة لي أكثر من حلم من أحلام اليقظة. أما اليوم فإنه حقيقة واقعة لا شك فيها ولا مراء"[٢]. وفي مقطوعة أخرى لذات الموضوع، يعرب فيه عن حبه وتقديره لذات المكان، قائلا: "جئتها يافعا مغمورا (مصر) ذا مستقبل غامض غير واضح المعالم، وها أنذا أغادرها شابا جامعيا مؤهلا مسلحا بالعلم والمعرفة... لقد منحتني مصر الثقة بالنفس، والعلم الغزير، والثقافة الواسعة، والشهادة العالية، والعروس الحسناء، وهل بعد هذه العطايا والهبات شيء أفضل أن يمنح؟"[٣].

بعد هذه الإقامة الطويلة في مصر والتي يعتبرها تكللت بالنجاح، ينتقل في السرد المكاني إلى الأردن، مصورا معاناته منذ اللحظة الأولى لوصوله إلى منطقة الرمثا! قائلا:

1) سمرين، أوراق الشتات، ص١٢٣.

2) نفسه، ص١٨١-١٨٢.

3) نفسه، ص٢٤٦.

"في الرمثا وهي أول مدينة أردنية يصل إليها القادم من دمشق أنفقت آخر ما كان في حوزتنا من نقود... لم أعبأ بذلك كثيرا، فقد كنت على يقين من أنني سأجد الأهل في انتظارنا... فوجئت بعدم وجود أحد في انتظارنا، ووقعت في حيص بيص"[1]. ومن ثم يسترسل بذكر مجموعة من المعضلات التي واجهته أثناء إقامته في الأردن، ذكر أغلبها في فصل سابق من الدراسة.

وفي مغادرته للأردن متجها إلى السعودية، يذكر حديثا سرديا للجانب العملي واصفا ذلك بالقول: "كانت المدة التي قضيتها في الرياض، على الرغم من قصرها حيث أنها لم تزد عن ثلاثة أعوام وشهرين مفعمة بالخير والبركة"[2].

وفي الكويت، يتحدث عن الجانب العملي، فقد عين مدرسا وتنقل في أكثر من موقع، ومارس حياته الطبيعية، مستذكرا بعض الأحداث والوقائع التي كانت تحدث على الساحة العربية والدولية.

وفي العودة ثانية إلى الأردن، التي عاد إليها قسرا، نتيجة لدخول القوات العراقية إلى الكويت، قائلا: "تسارعت الأحداث بعد احتلال العراقيين الكويت، وبدأت الآفاق تتلبد بغيوم مرعبة لا يعلم إلا الله ما الذي ستمطره على رؤوسنا. فكّرت في الأمر فهداني تفكيري إلى أن البقاء في الكويت قد أصبح ضربا من المغامرة المجنونة التي لا تحمد عقباها... وهكذا عقدنا العزم على مغادرة الكويت"[3]. وبعد مغادرة الكويت سرعان ما قرر

1) سمرين، أوراق الشتات، ص٢٤٨.

2) نفسه، ص٣٠٩.

3) نفسه، ص٤٠١.

العودة إلى الأردن ليستقر فيها: "قدمنا إلى عمان عن طريق العراق الذي بتنا فيه ثلاث ليال، قضينا إحداهما في الرمادي والثانية في الرطبة والثالثة على الحدود في منطقة طريبيل"[1].

نلحظ في هذه الأمكنة وخاصة الفضاء الخارجي، تغير الحال وتبدله من فضاء إلى آخر. ففي مصر نجد أنه يصرح بكثير من الأمور الإيجابية الحسنة؛ وفي لبنان ذكر حديثا سرديا لمعاناته من المرض؛ وفي الأردن يتحدث عن حالة من عدم الاستقرار انتابته منذ البدء؛ أما في الكويت والسعودية نجده يسهب كثيرا من السرد عن الجوانب العملية هناك. ولكن بعد أن تبدلت الأمور في الكويت ودخول القوات العراقية إليها، مما اضطره ذلك لمغادرتها عائدا إلى الأردن ومستقرا فيها، حتى كتابة هذه الدراسة.

خامسا: السرد

إن السيرة الذاتية ليست إلا شكلا من أشكال السرد، بوجود مؤلف يكتبها وسارد يسردها وقارئ يقرؤها. لذلك يشكل السرد موضوعا مثاليا للبحث في كيفية استعادة الوقائع والأحوال والأفعال ضمن أسس حكائية، من خلال هذا نجد أن الأدب العربي الحديث: "يحتفي بالنصوص السردية الآن احتفاء خاصا، وبخاصة الرواية إلى درجة اعتبر عصرنا عصر الرواية، وهم في كل هذا لم يكونوا على خطأ، فالرواية نوع أدبي انتزع الاهتمام، ونجح خلال مدة وجيزة في الاستئثار بالمكانة الأولى في الآداب العالمية وفي الأدب العربي"[2].

ركز النقاد على العامل السردي وحضوره في كتابة السيرة الذاتية النموذجية: "إذ إن السرد بمعناه الدقيق مثله مثل اللغة لا يعرف سوى نظامين من العلامات هما: الشخصي

---

1) المصدر السابق، ص٤٠١.

2) عبدالله إبراهيم، السردية العربية الحديثة. ٢٠٠٣، ص٢٩٧.

واللاشخصي، وهذان النظامان لا يستفيدان بالضرورة من المؤشرات اللغويـــة المرتبطـــة بالضمير (أنا) أو الضمير اللاشخصي (هو)...الخ"[1]. ونتيجة لهذا فمن المفـــروض فـــيمن يتعامل مع السيرة الذاتية بشكل عام، التركيز على جلب رواية الحكايات المـــسموعة التـــي تعتمد بدورها على المقامات السردية الداخلية، ويتجلى صوت السارد ويظهر فـــي الـــسيرة الذاتية بواسطة ضمير هو ضمير المتكلم المفرد، ومثال ذلك كما ورد في سيرة الموســـى: "أبي نفسه عاش حياة قاسية، فقد توفي أبوه وهو صغير، وكان على والدته (وردة) أن تقوم على تربية أبنائها الثلاثة وشقيقتهم.... يا لها من حياة حافلة بالأسى والـــشقاء تلـــك التـــي عاشتها"[2].

وفي العودة إلى **الهدأة**، نجد أن عويس يستخدم عنصر السرد الداخلي موظفا إياه في جلب الذكريات، ومستخدما المكان كدال على جلب الحدث وربط هذه الأبعاد معا، معبرا عن ذلك، بقوله: "وادي زقيقة هذا يذكرني بحادث مؤلم وقع لوالدي رحمه الله، حيث لدغته أفعى وهو يسقي أشتالا من الزيتون زرعها حديثا.... ولم يكن في العيادة أي عـــلاج. فاضـــطر والدي للذهاب إلى المستشفى المعمداني في عجلون فوصله بعد ست ساعات مـــن وقـــوع الحادث، حيث كان السم قد وصل الكليتين فتعطلتا عن العمل، وبقي والدي في صراع مـــع الموت ثلاثة أيام"[3].

نلحظ أن السارد في السيرة الذاتية يعلن انه يروي ولا يتخيل عندما يشير إلى مصادره ورواته، ويتمتع بالشجاعة التي تمده بالصراحة لكي يثبت الوقائع التي لا يرضى عنها. ومن

---

1) للمزيد أنظر طرائق تحليل السرد الأدبي. منشورات اتحاد كتاب المغرب، ١٩٩٢، ص٢٧ وما بعدها.

2) الموسى، ثمانون. ص٩ .

3) عويس، سيرته الذاتية. ص٢٥.

خلال هذا المنظور نجد أن بعض السير الذاتية العربية، توظف بعض التقانات السردية التي ترتبط كثيرا بالرواية، إذ يتخلى الراوي عن السرد، ويترك الشخوص تتحاور فيما بينها فارضة حضورها الذاتي، تمثل هذا لدينا في سيرة الطويل، بالقول: "استقبلني السيد خالد المدادحة، مدير مكتب الرئيس. قال لي إنه بحث عني منذ الصباح فلم يجدني وأن الرئيس صار عصبيا عندما أخبرته بأنني "لم أجدك" دخلت واثقا إلى مكتب الرئيس سألني، بحزم، وقد كان لا زال منحنيا فوق مكتبه، بعد أن غلف غضبه من تأخري بابتسامة هي جزء من تقاليد الضيافة فحسب. أين كنت طيلة اليوم؟! ..." (١).

وفي شكل آخر للسرد، نتعرف إلى السرد القصصي، إذ يعد ملائما جدا للسيرة الذاتية، بدليل استخدام أغلب الكتاب لهذا الجانب في تلك النصوص، وتمثل هذا في سرد الطويل، قائلا: "تقول القصة أن أبو غالب الزعبي شارك في خصام وقع في القرية. لا أحد يعلم ما الذي حصل ولكن ذلك القريب وجد ميتا بعد أن شج رأسه بعبوة. ومن الطبيعي أن تتوجه التهمة لأبو غالب الزعبي، فقد كان هو الذي بدأ الخصام وكان معروفا بقوته، وسرعة غضبه...." (٢).

وفي سيرة عويس، نؤكد استخدامه للجانب القصصي من السرد، بالقول: "وقصة هذا الكاهن قصة غريبة، ما زال أهل القرى المجاورة يتداولونها ويتندرون بها حتى الآن، يقال: إن مجموعة من اللصوص جاؤوا ليلا إلى المغارة لسرقة قطيع الماعز الذي يملكه الكاهن.

1) للمزيد في محاورة الشخوص، أنظر الطويل، أوراق سفير. ص١٩ ـ ٢٧ .

2) الطويل، مدارات الذاكرة. ص٢٩ وما بعدها.

وعندما باشر أحد اللصوص بإزالة أغصان الشجر عن باب المغارة. شعر اللصّ بأيد تكبله من الخلف فأخذ يصرخ...." [1].

وعن الدور الهام الذي يلعبه السرد في تقديم الاعترافات من خلال السيرة الذاتية، والذي يدون فيه الكاتب أحوالا مثيرة وحساسة وخطيرة في نفس الوقت، نلحظ هذا لدى عويس في نصوص سيرته الذاتية: "كان لي جارا ومعروف أنه ماسوني، جاء يعرض عليَ الانضمام للماسونية. وأشار إلى أن ذلك سيعفيني من الملاحقة الأمنية، ويفتح أمامي الباب واسعا لتحسين وضعي المادي، وكذلك يؤهلني للوصول إلى مناصب عليا في الدولة. وضرب لي أمثلة عن بعض الحزبيين من البعثيين الذين انضموا إلى الماسونية وأصبحوا فيما بعد وزراء.... "[2].

بتقديمه لهذه الاعترافات، يفصح عن كثير من الأمور الحساسة والمثيرة: كأن يعفى من الملاحقة الأمنية في حال انضمامه إلى الماسونية!؟ وبتأكيده بوجود ما يسمى بالماسونية[3]، وانضمام مجموعة من البعثيين إليها. في هذا سرد لطبقات "الشخصية الجوانية" وهي طبقة المسكوت عنه، قاصدا بذلك الإثارة والنقد الذاتي اللاذع.

أما ما يأخذ على بعض من السير الذاتية في طبيعة السرد فيها، فإننا نلحظ نصوصا سردية متناثرة ومكثفة، وكأنها مجتزأة من هنا وهناك أو من بعض أعمال الكاتب الأخرى. فتأتي السيرة الذاتية أحيانا ذات طابع مذكراتي تفتقر إلى تمثيل صاحبها تمثيلا ذاتيا، متخذة

---

1) هناك قصة أخرى مشوقة يسردها عن كيفية مجيء عشيرة العويسات إلى دبين، أنظر سيرته الذاتية، ص٢٧ وما بعدها.

2) عويس، سيرته الذاتية، ص١٢٣.

3) الماسونية هي: البناءون الأحرار، وهي منظمة يهودية سرية إرهابية غامضة محكمة التنظيم، تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، جل أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار ويقومون بما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام. أنظر الموقع الالكتروني: www.Masyaf.com

من التأريخ والأحداث والموضوعات والقضايا جانبا هاما في كتابة السيرة الذاتية، وعن هذا الطابع يصرح المجالي: "لهذه المذكرات قصة توالت أحداثها على ثلاثة مراحل. وبدأت فصولها قبل أكثر من عشرين سنة، عندما كان يواجهني الأصدقاء بين الحين والحين بالسؤال نفسه: "متى ستكتب مذكراتك يا دكتور عبد السلام؟ وكنت أجيبهم بصراحة: أنا لا أتقن كتابة المذكرات، ولا أرى ضرورة ملحة لكتابتها الآن. غير أنني كنت أنا أيضا أطرح السؤال على نفسي ولا أجد له الجواب الشافي"[١].

وبالرغم من هذا التميز في توظيف البعد السردي في تلك السير، إلا أنه لوحظ بعض من العيوب، في عملية توظيف هذا العنصر توظيفا دقيقا في عملية استحضار الذكريات بحرية كافية. إذ يستحضر الكاتب صورا معينة وأحداثا ذات طبيعة عاطفية تعتمد على الذاكرة العامة، باستخدام الوصف لتبيان مدى البعد الاجتماعي والتاريخي للمكان والزمن والشخصيات، ضمن أسلوب موضوعي، نجد هذا ممثلا في قول المجالي: "وأخيرا قررت أن أحتكم إلى ذاكرتي، فقد وهبني الله ذاكرة كأنها خزان أمين. فوقع اختياري على نقطة مركزية يتفرع منها كل شيء في حياتي. وهــذه النقطة هي دموعي الساخنة التي أحالتني طفلا للحظة واحدة، لحظة لم تفارقني صورتها في أي مرحلة من مراحل الحياة. لحظة فقدت والدي عطا الله المجالي، فحين فارقني لآخر مرة أحسست، أنني فقدت السند، وأن شيئا في داخلي انكسر... "[٢].

من هنا، نجد أن الخطاب غير المباشر أو السرد يبقى المهيمن، حيث يتدخل الكاتب في مسار السرد وتعليقه وتحريكه لتلك الشخصيات، وتقديم رسالة مفادها الكشف عن واقع

---

1) المجالي، رحلة العمر. ص٧.

2) نفسه، ص١٠.

الحال واستجلاء الرؤية، ومن ثم تقديم الانتقاد. تمثل هذا كثيرا في أوراق الشتات لرجا سمرين: "وقد روى لي عدد من شيوخ القرية بأن جدي سمرين كان يملك مساحة واسعة من هذا المرج وأنه ــ غفر الله له ــ باع ما كان يملكه منه إلى أهالي عين كارم ليفي بمتطلبات عشيقاته، فقد كان من الأثرياء المعدودين المقبلين على الملذات"(١).

من خلال ما تقدم لعموم تلك السير، نجد أن الأغلب قد وظف أسلوب السرد توظيفا دقيقا، وجعل منه حضورا مميزا لها، إذ لم تخل سيرة ذاتية من استخدام هذا العنصر الهام في كتابتها، لكن هناك تفاوت في عملية توظيف هذا الجانب، فمنهم من وظفه عن طريق المذكرات، ومنهم من وظفه عن طريق الذكريات أو اليوميات، ومنهم من وظفه عن طريق المشاهدات أو الأحداث أو اليوميات. وإن معظم هذه الأجناس قريبة جدا من السيرة الذاتية ــ كما بينا سابقا ــ وعنصر السرد لا يستغني عن هذه الأجناس والعكس صحيح، وبالتالي فأن السيرة الذاتية تعتمد على أغلب هذه الأجناس، وهي إذ تعتمد على الاستعانة بهذه الأجناس إضافة إلى الرواية، كان ذلك أجدى وأميز لفن السيرة الذاتية العربية الحديثة.

وفي أخذنا لهذه المشاهد، نلحظ فيها تنوعا في الأسلوب السردي، واختلافا في طرقها، لديها قواسم مشتركة بالإحساس بوطأة الزمن وبضرورة تسجيل مرحلة من مراحل الحياة، تأكيدا للذات ودفعا لشبح الموت وتتويجا لرحلة العمر، أو تقديم رأي مهم لدى الكاتب. وفي سبيل هذا استخدم كتاب السير مجموعة من الأساليب الروائية لتزيد السير بهاء وكمالا نصيا أدبيا، وبذلك نجد أن: "سيرة الذات" في هذه الحال تغدو سيرة المرحلة التاريخية لوطن وأمة، ولعل هذا ما يترسخ حين يقف المرء على سير الآخرين تحدث عن المرحلة نفسها والمكان الجغرافي نفسه، كما نجد على سبيل المثال في بعض ما أورده فالح الطويل

---

(١) سمرين، أوراق الشتات، ص١١.

في سيرته المعنونة "مدارات الذاكرة"، وما نجده في بعض كتابات "يعقوب العودات"، ففي كل هذه الكتابات تعبير عن حالة عامة، تختلف فيها التفصيلات والتجربة الذاتية للسارد، في حين تظل الخطوط العريضة للحالة مشتركة..." [١]

وفي الختام نجد أن الذات الساردة تنقلنا إلى محطات متعددة الأغراض، هذه المحطات تفضي إلى مساحات شاسعة بأسلوب قصصي وروائي لحياة الشخصية نفسها، عبر عن هذا ريكور[٢]، بالقول: "إن الهوية السردية تجمع طرفي السلسلة: ديمومة الزمن في الطبع وديمومة المحافظة على الذات"[٣]. وفي هذا التداخل السردي يتم الكشف الأولي وتتوالى بعدها الإيضاحات، كأننا هنا في لحظة تعرية الذات أو الذات في حالتها الأولى قبل التكوين، حيث يبدأ السرد متناولاً جانبا هاما، الصراحة والصدق في تقديم الاعترافات عبر مناجاة النفس، تعليقاً على مظاهر واقعية ضمن أسلوب قصصي خطابي داخل النص: إذ "تشبه السيرة الذاتية الأدب الروائي في بنيته السردية الأساسية، ويوجد بها عنصران رئيسيان: هما القصة والخطاب. القصة هي الأحداث المنقولة بأشخاصها وأماكنها وزمنها، بينما الخطاب هو تحويل تلك الأشياء إلى كلمات، أو هو التقديم الأدبي للقصة بعبارة أخرى.. "[٤].

1) الزعبي، كتاب "ثمانون" لسليمان الموسى. الرأي

2) بول ريكور: فيلسوف فرنسي ذو شهرة واسعة، عمل أستاذا في السوربون وفي عدة جامعات فرنسية وأوروبية، وعميدا لجامعة نانتر. أنظر صفحة الغلاف، في كتابه الذات عينها كآخر، ٢٠٠٥.

3) المرجع السابق، ٢٠٠٥، أنظر فصل٥ وفصل٦، ص:٢٤٩ تحدث عن الهوية الشخصية والهوية السردية وعن الذات والهوية الشخصية.

4) رووكي، ص١٨٨.

الخاتمـــة

تبين من خلال دراسة السير الذاتية موضوع البحث أنها تشترك في العنصرين المحوريين: الذات والإطار الاجتماعي، فكل واحدة منها عرضت على نحو تفصيلي، وإن كان متباينا بين سيرة وأخرى للحياة الذاتية لكاتبها، كما عرضت للإطار الاجتماعي الذي عاشت فيه بكل أبعاده. وقد تجلى في الدراسة مجموعة كبيرة من عناصر الالتقاء بين هذه السير إلى بعدين: ذاتي واجتماعي.

فقد ظهر أن ثلاثا من السير، تحدثت عن الفقر والمعاناة وضيق ذات اليد، وأصحابها هم: الموسى والطويل وعويس، وقد آل مآلهم إلى أن أصبحوا فيما بعد في أعلى المراتب الحياتية، فبرز منهم السياسي والمؤرخ والكاتب، وجاءت سيرهم دالة على أعمالهم؛ وفي سيرة عبد السلام المجالي، فقد تناول فيها الموضوعات بشكل مختلف عن سابقيه، تميزت بالحديث عن الافتخار والاعتزاز في أغلب مواطن السيرة، وأنه لم يكن ليعاني من الفقر وضيق ذات اليد كما عانى الجميع، بل ذكر حديثا تناول فيه مميزات شخصية ممجدة للذات، من حيث الأداء العملي والوصول إلى مركز سياسي مرموق في الدولة الأردنية، تبوأ في نهاية الأمر رئاسة الوزراء في الأردن؛ وفي سيرة رجا سمرين التي صدرت في الأرن، فقد غلب عليها الطابع التاريخي العام للأحداث في مناطق متعددة من الوطن العربي، ولكن بعد أن استقر به الأمر في الأردن، تناول حديثا مقتضبا في مرحلة متأخرة من سيرته الذاتية.

وقد أشار أصحاب تلك السير إلى جانب هام، في العلاقة التي تربط الحياة العقلية بالحرية، وذلك أنه يستحيل أن يتحقق تطور أو تغير لحياة عقلية حقيقية، دون توافر الحرية السياسية في أبسط صورها.

في عموم تلك السير الصادرة في الأردن للفترة ما بين عامي ٢٠٠٠م ــ ٢٠٠٦م.
نلحظ تنوعا خاصا مميزا في عملية الاستحضار السردي بشكل عام: من شخوص؛ وأحداث تاريخية؛ وحقائق؛ وعلاقات؛ ورسائل وأخبار.... تمثل هذا في عملية الاستحضار للإطار الاجتماعي والسياسي والثقافي والاقتصادي، ومدى الترابط والتلاقي ضمن هذه الأطر الحياتية وتوظيفها في تلك السير، وإظهارها بشكل واضح وجلي من خلال الصور التي قدمها أصحابها للواقع المعاش سواء كان فردا أو مكانا، وما تصويرهم وجلبهم لهذا الواقع إلا ليدلوا به على الذات المتطلعة إلى الآفاق، التي تود النفاذ والخلاص إلى واقع أرحب وأوسع من السابق، وفعلا تم لها ذلك.

وفي الختام فقد أولت هذه الدراسة جلّ عنايتها لدراسة السيرة الذاتية واستقرائها في الأردن، محاولة إظهار بعض جوانب إبداعية لدى أصحابها بأسلوب نقدي. فإن أصبت فيها فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولا: المصادر

سليمان موسى. *ثمانون: رحلة الأيام والأعوام*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م.

فالح الطويل. *مدارات الذاكرة: سيرة*. ج١، عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م.

فالح الطويل. *في الطريق إلى عمان: أوراق سفير*. عمان: دار مجدي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

عبد السلام المجالي. *رحلة العمر: من بيت الشعر إلى سدة الحكم*. بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠٠٣م.

رجا سمرين. *أوراق الشتات: سيرة ذاتية ومذكرات*. عمان: دار اليراع للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م.

وهدان عويس. *العودة إلى "الهداة*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٣م.

ثانيا: المراجع العربية:

ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمحد بن مكرم. *لسان العرب*. تحقيق أمين محمد عبد الوهاب. ط٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٩م.

أحمد أمين. *النقد الأدبي*. ط٤. بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

أحمد عوين. *أبعاد المكان الفنية*. الإسكندرية: دار الوفاء، ٢٠٠٤م.

أمل التميمي. *السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر*: دراسة في نماذج مختارة. بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠٥م.

أمين أبو الشعر. *مذكرات الملك عبدالله*. ط٥. عمان: المطبعة الهاشمية، ١٩٧٠م.

إبراهيم أبو زيد. *سيكولوجية الذات والتوافق*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٧م.

إبراهيم الكوفحي. *مرايا وظلال قراءات.. ومراجعات نقدية*. عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٠٥م.

إبراهيم عثمان. *مقدمة في علم الاجتماع*. عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

إحسان عباس. *فن السيرة* . ط٢. بيروت: دار الثقافة، ١٩٥٦م.

بسام قطوس. *سيمياء العنوان*. عمان: وزارة الثقافة، ٢٠٠٢م.

تهاني شاكر. *السيرة الذاتية في الأدب العربي*: فدوى طوقان وجبرا ابراهيم جبرا وإحسان عباس ، نموذجاً. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات ، ٢٠٠٢م.

تيسير ظبيان. *الملك عبدالله كما عرفته*. ط٢. عمان: دائرة المكتبة الوطنية، ١٩٩٤م.

خالد الكركي. *سنوات الصبر والرضا*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٩م.

خليل الشيخ. *السيرة والمتخيل*: قراءات في نماذج عربية معاصرة. عمان: دار أزمنة للنشر، ٢٠٠٤م.

زهير المارديني. *الأستاذ: قصة حياة ميشيل عفلق*. لندن: مكتبة رياض الريس، ١٩٨٨م.

سليمان موسى. *خطوات على الطريق* (سيرة قلم: تجربة كاتب). بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣م.

سمير قطامي. *الحركة الأدبية في شرق الأردن منذ قيام الإمارة حتى سنة ١٩٤٨*. عمان: منشورات وزارة الثقافة والشباب، ١٩٨١م.

ـــ *الحركة الأدبية في الأردن ١٩٤٨م ـ ١٩٦٧م*. عمان: منشورات وزارة الثقافة والشباب، ١٩٨٩م.

ـــ *مختارات من أدب عيسى الناعوري*. إربد: دار الكندي للنشر والتوزيع،٢٠٠٢م.

شكري المبخوت. *سيرة الغائب سيرة الآتي*: السيرة الذاتية في كتاب الأيام لطه حسين، [د.ط]. تونس: دار الجنوب للنشر، ١٩٩٢م.

شوقي المعاملي. *السيرة الذاتية في التراث*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٩م.

صلاح الدين العمرية. *مفهوم الذات*. عمان: مكتبة المجتمع العربي للنشر، ٢٠٠٥م.

عطاف عويس. *النمو النفسي للطفل*. عمان: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣م.

عبد العزيز خزاعلة. *مقدمة لدراسة المجتمع الأردني*. ط٣ . د. ن. ١٩٩٩م.

عبد العزيز شرف. *أدب السيرة الذاتية*. القاهرة: الشركة المصرية العالمية ١٩٩٢م.

عبد الرحمن شقير. *من قاسيون إلى ربة عمون ـ رحلة العمر*. تقديم: هاني الحوراني، عمان: دائرة المكتبة الوطنية. ١٩٩١م.

عبدالله ابن الحسين . *حقبة من تاريخ الأردن*: الآثار الكاملة للملك عبدالله بن الحسين. بيروت: الدار المتحدة للنشر، ط٣. ١٩٨٥م.

عبدالله ابن الحسين. *مذكراتي*. ط٢. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.

عثمان هندي و ناديه عبدالله. *المدخل إلى علم الاجتماع*. الرياض: مكتبة الرشد، ٢٠٠٣م.

علي شلق. النثر العربي في نماذجه وتطوره لعصري النهضة والحديث. بيروت: دار القلم، ١٩٧٤م.

فادية الجولاني. *الأسرة العربية:* تحليل اجتماعي لبناء الأسرة وتغير اتجاهات الأجيال. [د.ط]. [د.ن]، ١٩٩٨م.

فدوى مالطي دوجلاس. *من التقليد إلى ما بعد الحداثة*. تقديم جابر عصفور. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م.

مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. *الموسوعة العربية العالمية*. ط٢. مج: ١٦، ١٩٩٩م.

محمد الجوادي. *تكوين العقل العربي*: مذكرات المفكرين والتربويين. القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٣م.

محمد لطفي اليوسفي. *فتنة المتخيل*. مج٣. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م.

منشورات اتحاد كتاب المغرب. *طرائق تحليل السرد الأدبي*. الرباط، ١٩٩٢م.

منيب الماضي، سليمان موسى. *تاريخ الأردن في القرن العشرين١٩٠٠-١٩٥٩م*. ط٢. عمان: مكتبة المحتسب، ١٩٨٨م.

مها القصراوي. **الزمن في الرواية العربية**. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤م.

ميخائيل نعيمة. *سبعون*. بيروت: دار نوفل، ٢٠٠٣م.

هزاع المجالي. *مذكراتي*، [د.ن] / [د.ت]

هشام عبد الله. *الحسين بن طلال*: ليس سهلاً أن تكون ملكاً، سيرة ذاتية. عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٩م.

وهدان عويس. **نهضة الفكر في الغرب وأزمة الفكر عند العرب**. عمان: دار أزمنة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦م.

يحي عبد الدايم. ***الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث***. بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٧٤م.

يعقوب زيادين. ***البدايات: سيرة ذاتية أربعون سنة في الحركة الوطنية الأردنية***. [د.ن]، ١٩٨١م.

يوسف أبو ليل وجيمس لنت، ... وآخرون. ***الحسين: سيرة حياة***. عمان: دار النسر، ١٩٩٠م.

ثالثا: المراجع المترجمة:

أندرياس، ستيفن. ***كيف تغير ذاتك وتصبح الإنسان الذي تتمنى***. الرياض: مكتبة جرير، ٢٠٠٥م.

إدل، ليون. ***فن السيرة الأدبية***. ترجمة، صدقي حطاب. [د.ط]، القاهرة: مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٧٣م.

الحسين، ملك المملكة الأردنية الهاشمية، ***مهنتي كملك أحاديث ملكية***. نشرها بالفرنسية: فريدون صاحب جم. ترجمة، غازي غزيل، [د.ن]/[د.م] ١٩٨٧م.

برنس، جيرالد. ***المصطلح السردي***. ترجمة عابد خزندار. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣م.

حافظ، صبري. ***تكوين الخطاب السردي العربي***. ترجمة أحمد بورحسن. [د.ن]، ٢٠٠٢م.

دافي، ماري. ***معرفة الذات***، ترجمة، نسيم نصر. ط٣. بيروت: منشورات عويدات، ١٩٨٣م.

رووكي، تيتز. *في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية.* ترجمة، طلعت شايب. مراجعة، رمضان بسطاويسي. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢م.

زيكور، بول. *الذات عينها كآخر.* ترجمة: د. جورج زيناتي. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥م.

سكينر، ب ـ ف . *تكنولوجيا السلوك الإنساني.* ترجمة: عبد القادر يوسف. [د.ط]، الكويت: سلسلة عالم المعرفة. ١٩٨٠م.

غوستاف، كارل. *علم النفس التحليلي.* ترجمة نهاد ميثاطة، ط٢. اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع،. ١٩٩٧م.

لوجون، فيليب. *السيرة الذاتية: الميثاق والتاريخ الأدبي.* ترجمة: عمر حلي. بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٤م.

مصباح، محمد تقي. *معرفة الذات وبناؤها من جديد.* ترجمة: الشيخ محمد علي التسخيري، بيروت: دار الأمير، ١٩٩٢م.

ماكيفر، روبرت. *المجتمع.* ترجمة: علي عيسى، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٤م.

ماي، جورج. *السيرة الذاتية.* تعريب: محمد القاضي، عبدالله صولة. المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات بيت الحكمة ، ١٩٩٢م.

موم، سومرست. *عصارة الأيام.* ترجمة: عدنان شيخو. دمشق: دار علاء الدين، ١٩٧٢م.

رابعا: الدوريات والمقالات:

تركي المغيض. أدب السيرة والمذكرات في الأردن. *مجلة المنارة.* جامعة آل البيت، مجلد:٣، ٥، ١٩٩٩، ص: ٤٢٩.

جمال الباكر. "بناء مقياس للإفشاء عن الذات". القاهرة: **مجلة علم النفس**، العدد:٤٤، ١٩٩٧، ص١٥٤- ١٧١.

حبيب الزيودي. "كتّاب السيرة". **جريدة الرأي**، ١٤ آب ٢٠٠٦ ــ العدد ١٣١٠٦

زياد الزعبي. "كتاب "ثمانون" لسليمان الموسى: كثير من الرضا.. كثير من المرارة". **الرأي**، الأثنين ١ آذار ٢٠٠٤م. العدد ١٢٢١٥

علي فهمي. "السيرة الذاتية ومعايير الثقة. "التاريخ الذي أحمله على ظهري" نموذجا". **مجلة القاهرة**، عدد:١٦٢، ١٩٩٦م.

عمران كبيسي. "السيرة الذاتية فنيا وعربيا". **مجلة تهامة**، ع:٦، ٢٠٠٣، ص: ٨٧- ٩٦

فائز عمر. "السيرة الذاتية عند الصوفية". **أبحاث اليرموك/ سلسلة الآداب واللغويات**، ١٦: ٢(١٩٩٨): ٣٥ ــ ٦٣

فيصل الدراج. "السيرة الذاتية وملامح الأقدار الفلسطينية". **جريدة الدستور**، ٢١ تموز ٢٠٠٦م. ص:٤ ج٢ الثقافي.

نايف العجلوني. "السيرة الذاتية لفدوى طوقان: الشخصي والسياسي والأدبي". **مؤتة للبحوث والدراسات**. ١٠: ٤ (١٩٩٥):٨٩- ١٠٦.

ياسين حافظ. "فن كتابة السيرة: طبيعته وعناصر تطوره". **مجلة أفكار**، العدد:١٣٤، ١٩٩٨، ص:١٧١- ١٧٦.

خامسا: الرسائل الجامعية:

ناجي أبوشريحة. ***السيرة الذاتية في بلاد الشام في الأدب العربي الحديث***. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد- الأردن، ١٩٩٧.

سادسا: المواقع الإلكترونية:

حاتم الصكر. *السيرة الذاتية النسوية: البوح والترميز القهري*.
الموقع الإلكتروني: **www.iraqiwrite.com**

موقع مصياف، الماسونية.
الموقع الالكتروني: **www.Masyaf.com**

سابعا: المراجع الأجنبية:

- ***Britannica Concise Encyclopedia.*** Pub. Encyclopedia Britannica. P.133. 2003.

- ***The New Encyclopedia Britannica,*** Hminngway, Helen. vol.23 , 1990.

- Weber, M: ***The Theory of Social and Economic*** Organization, Trans. by A. M. Henderson and Tallcot Parsons, Oxford, Univ. Press, New York, 1957, P.154.

Abstract

"Autobiography in Jordan: Self and Social Framework: 2000 – 2005 A.D."

Prepared by:
Fayez Selah Qasem Athamneh

Supervised by:
Prof. Dr. Ziyad Saleh Al – Zo,uby

This research consists of five biographies appeared in Jordan between 2000 – 2005 written by politicians, writers and educators. The are biographies depicting the self - image in its social framework as it is social dimension with all its components.

The biographies, all in all, focused on three diachronic narrative decisive bases in writing an autobiography: Pre – children stage which deals with news transfer by a narrator and paring the way for the second stage. The stage of childhood retrieving which is based on focusing on one self and shedding light on the creative writer which is the intellectually and psychologically significant. Then youth stage. This side of the study depicts the social, cultural, and political life. After that, the old stage which is crystallizes the events and situations. The final images will be depicted in the final in retrieving the echoes of the past.

Three significant pillars in literary criticism are: The composition of the biography discourse; the composer (the sender) who adapted the discourse (the message) within real events, the relation of the writer with the other (the addressee). The lack of any of these components weakens the artistic structure and causes loss of its significance.

"Autobiography in Jordan:

Self and Social Framework:

2000 – 2005 A.D."